الفصل الثاني

مداخل متعددة لقضية شائكة
MULTIPLE APPROACHES FOR A COMPLEX ISSUE

(٢,١) مقدمة
Introduction

التايبولوجيا typology والتداولية التقابلية contrastive pragmatics هما فرعا علم اللغة اللذان يتناولان المقارنات بين اللغات. فبينما يركز علم التايبولوجيا على الاختلافات بين اللغات وما يترتب عليها من نتائج تمس الإدراك الإنساني لا سيما الاختلافات في المستويات الصرفية-النحوية والدلالية والصوتية، ترتبط التداولية التقابلية بكيفية توظيف الثقافات المختلفة للغة كأداة للفعل instrument of action حيث يوجد الكثير من الدراسات التداولية التقابلية التي تتناول العديد من اللغات. وتتضمن الدراسة التي بين أيدينا العديد من جوانب المقاربات التايبولوجية والتداولية في سعيها إلى اكتشاف مجموعة الوسائل الإنسانية التي تعبر عن العلاقات الإنسانية من خلال اختيار مصطلحات المخاطبة في عدة لغات وتتناول أيضاً تنوع الوظائف التي تقوم بها صيغ المخاطبة في إطار التغير الاجتماعي. ومن بين الموضوعات ذات الأهمية التي تتناولها الدراسة آراء المتحدثين حول:

(أ) طرائق التفاوض لانتقاء خيارات مخاطبية معينة.

(ب) التنوع والتغير في ممارسات المخاطبة عبر الأجيال.

(ج) الوسائل التي تنشأ بها أنماط المخاطبة المختلفة في المجالات والمؤسسات المختلفة.

(د) صيغ المخاطبة المختلفة في الاتصال الإلكتروني، مثل مجموعات التواصل الحواري عبر الشبكة والاتصال عبر البريد الإلكتروني.

(هـ) ممارسات المخاطبة في اللغات متعددة المراكز، أي اللغات ذات اللهجات الوطنية المتعددة، مثل الألمانية في ألمانيا والنمسا.

(و) ممارسات المخاطبة في مواقف التماس اللغوي language contact.

يقدم هذا الفصل الخلفية النظرية والمنهجية للفصول التالية التي يتم فيها عرض الخطوط العريضة لنتائج الدراسة التجريبية. ونقدم في هذا الفصل، أولاً، خلفية البحث حول المخاطبة بشكل عام، والمخاطبة في اللغة الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والسويدية بشكل مخصوص (الفقرة ٢,٢)، ثم ننتقل بعد ذلك إلى الأطر النظرية لتحليل العلاقات التفاعلية والشخصية وفهمها ونبين كيف ترتبط تلك الأطر بدراسة ممارسات المخاطبة (الفقرة ٢,٣). وفي الفقرة الأخيرة، نقدم وصفاً للمنهجيات المستخدمة في الدراسة (الفقرة ٢,٤) قبل أن نلخص النموذج النظري الذي يعد بمثابة الدليل لهذا العمل حول المخاطبة (الفقرة ٢,٥).

(٢,٢) الدراسات البحثية في مجال المخاطبة
Research on Address

رغم وجود دراسات عديدة تصف أنظمة المخاطبة في العديد من اللغات، إلا أن القليل من تلك الدراسات يتناول المقارنة بين تلك الأنظمة أو ينحى في دراستها منحى تجريبياً. وتعد دراسة براون Brown وجيلمان Gilman "ضمائر السُّلطة والتضامن" 'The pronouns of power and solidarity' (Brown and Gilman 1960) هي الدراسة

الرائدة حول استخدام ضمائر المخاطبة من وجهة النظر الاجتماعية-اللغوية. وقد انبثقت عن تلك الدراسة أبحاث تالية أنتجت ثنائيتين هامتين two crucial dichotomies. فترتبط ثنائية ضمائر التأدب V في مقابل ضمائر التآلف T، وفق تسمية براون وجيلمان (Brown and Gilman 1960: 254) بالثنائية الاجتماعية الكبرى macro-sociological كما تظهر في ثنائية "السلطة" power في مقابل "التضامن" solidarity. وفضلاً عن ذلك، هناك حالة الاستخدام غير التبادلي للضمير V "ضمير الرسمية والتوقير" الذي يستخدم من قبل أحد المتخاطبين بينما يرد عليه الآخر بالضمير T "ضمير العفوية والمساواة"، ويعد ذلك الأسلوب المخاطبي غير التبادلي دلالة سلطة power semantic، بينما يعد الاستخدام التبادلي للضمير T أو V بين المتخاطبين دلالة تضامن solidarity semantic. وأبعد من ذلك، توقع براون وجيلمان أن يكون الانتشار والغلبة لضمير الT على الضمير الV.

لقد كان الأساس التجريبي المعزز للفرضيات النظرية الكبرى، بل والعالمية، لدراسة براون وجيلمان قاصراً بعض الشيء، فقد اعتمد البحث بصفة أساسية على المتحدثين الأصليين الفرنسيين والألمان والإيطاليين من الذكور، وعددهم ٥٠ فرنسياً، و٣٠ ألمانياً، و١١ إيطالياً من زوار الجامعات في منطقة بوسطن في أواخر الخمسينيات. وجهت انتقادات إلى تلك الثنائيات التي طرحتها دراسة براون وجيلمان وكذلك إلى فرضيات الدراسة، وقد دفع هذا إلى مزيد من البحث والتحري. فهناك العديد من لغات العالم التي يزداد فيها عدد ضمائر المخاطبة ويتنوع بصورة تفوق طرح ثنائية الضمير T و V الساذجة التي أوردها براون وجيلمان. ولنفس هذا السبب ينتقد ميلهويزلر وهاريه (Mühlhäusler and Harré 1990) هذا النظام الثنائي. غير أن ذلك النقد الموجه للنظام الثنائي لا ينطبق على أي من اللغات الواردة في دراستنا. وقد قامت براون (Braun 1988)، في إطار انتقادها لنموذج براون وجيلمان، بتجميع بيانات حول ضمائر المخاطبة من ٣٠ لغة،

وأوردت الباحثة، على سبيل المثال، أن اللغة البولندية لا تحتوي إلا على ضمير واحد يمثل صيغة T (وهو ضمير المفرد المخاطب ty "أنت") بينما تحتوي على ثلاثة ضمائر مختلفة على الأقل تمثل صيغة V (ضمير المخاطب الجمع wy "أنتم"، في مقابل ضمير الغائب المفرد للمذكر on "هو" والمؤنث ona "هي"، في مقابل ضمير الجمع الغائب oni "هم/هن"). وتورد الباحثة كذلك اللغة اليابانية التي تحتوي على ستة ضمائر للمخاطبة (Braun 1988: 304-5). وقد أدى التحليل الذي أجرته براون إلى تشكيك البعض في مصداقية مقاييس "السلطة" و"التضامن" في وصف المخاطبة في بعض السياقات، والتأكيد على أهمية إدماج سمات المتحدثين مثل العمر والمهنة والنوع واللهجة في أي نموذج يتعامل مع ممارسات المخاطبة (Braun 1988: 38-42, 306, 307)، لكن من الملاحظ أن العديد من نتائج البحث الذي قامت به براون يعتمد على قاعدة بيانات تجريبية قاصرة للغاية، حيث لا يوجد سوى مفحوص informant واحد أو اثنين لكل لغة.

توضح الأمثلة السابقة من البولندية واليابانية الاختلافات المحتملة في التعبير اللغوي عن مواقف المخاطبة. ولكن ماذا عن اللغات التي تنتمي لأصول غرب أوروبا، مثل تلك التي نقدمها في هذا الكتاب. بدايةً، نقول إن تنبؤ براون وجيلمان بإهمال استخدام صيغ الضمير V و T التي تستخدم بشكل غير تبادلي، والاقتراب من تبني استخدام الضمير المعبر عن صيغة T والمستخدم بشكل تبادلي بين المتخاطبين هو تنبؤ يصلح للتعميم، ولكن الحقيقة أعقد من ذلك بكثير. وللتدليل على ذلك نجد أن اللغة الأسبانية متعددة المراكز، مثلاً، تحتوي على العديد من الاختلافات في لهجاتها الوطنية من ناحية تعدد أشكال ضمائر المخاطبة وما يرتبط بها من مضامين اجتماعية. ففي حين نجد أن معظم اللهجات الأسبانية تحتوي ثنائية تضع الضمير tu (الذي يعبر عن صيغة T) في مقابل vos/vosotros (الذي يعبر عن صيغة V)، نجد أن الأسبانية في كولومبيا، على سبيل المثال، توظف ثلاثة ضمائر للمخاطبة وهي tu و vos و usted، بينما يتجسد

شكل صيغة الضمير T في اللهجة الأرجنتينية في الضمير vos، وفي اللهجة التشيلية في الضمير usted (Hughson 2005). ويوضح فاندركيرتشكوف (Vanderkerckhove 2005) أن الهولندية البلجيكية العامية colloquial Belgian Dutch توظف ضميراً مفرداً للمخاطبة وهو الضمير ge "أنت" (والذي ينقلب إلى gij حينما يكون في موضع النبر)، على النقيض من اللغة الهولندية في هولندا Netherlands Dutch التي تستخدم jij/je "أنت، الخاص بالعفوية والمساواة" (التي تمثل صيغة T) و U "أنت، الخاص بالرسمية والاحترام" (التي تمثل صيغة V)[1]. ووجدت فيرماس (Vermaas 2002) في دراستها لأنماط المخاطبة في اللغة الهولندية في هولندا اختلافاً كبيراً في أنماط المخاطبة بحسب المذهب الديني، حيث يستخدم الكاثوليك والملحدون صيغة الضمير الذي يمثل T استخداماً متزايداً، بينما يحافظ الكالفينيون الأرثوذكس Orthodox Calvinists على الضمير الذي يمثل صيغة V، بل ويحثون الأجيال الشابة على استخدامه. وتؤكد تلك النتيجة على أهمية دور الطبقية الاجتماعية social stratification في إحداث اختلافات في أساليب المخاطبة وهذا يوضح أيضاً إشكالية التعامل مع المجتمع اللغوي بأكمله كوحدة واحدة.

تقدم البيانات التي بين أيدينا بعض الأدلة على التطورات الدورانية cyclical developments في الفرنسية والألمانية والسويدية، وهذا يتناقض مع تنبؤ براون وجيلمان بتطور أساليب المخاطبة نحو استخدام T في كافة السياقات universal T، غير أن اللغة الإنجليزية تمثل التحدي الأكبر لنموذج براون وجيلمان والذي يقتصر على أساليب المخاطبة التي تقوم على استخدام الضمائر. فمن ناحية التطور التاريخي،

---

(١) بعد اكتمال مخطوطة هذا العمل، ظهرت دراسة شنايدر وبارون (Schneider and Barron 2008) التي تحتوي على ١١ فصلاً حول التنوع التداولي في بعض اللغات متعددة المراكز. وقد أفرد المؤلفان فصلاً حول المخاطبة في الهولندية في هولندا والفلاندر Flanders (Plevoets, Speelman and Geeraerts).

أصبح الضمير الإنجليزي you الذي يمثل صيغة الضمير V "صيغة الرسمية والاحترام" هو الضمير الإنجليزي العام في المخاطبة، وليس الضمير thou "أنت" الذي يمثل صيغة T "صيغة العفوية والمساواة"، متناقضاً بذلك مع فرضية براون وجيلمان. غير أن نظام المخاطبة في الإنجليزية أكثر تعقيداً من ذلك، كما سنرى، إذ إن بعض جوانب التفاوت الاجتماعي (انظر الفقرة ٢,٣,٣) التي يتم التعبير عنها من خلال التمايزات في ضمائر الفرنسية والألمانية، يعبر عنها في الإنجليزية من خلال الصيغ الاسمية مثل Sir "السيد" وMadam "السيدة" و mate "الرفيق".

نظراً لأن دراسة براون وجيلمان سبقت التطور الذي طرأ على علم اللغة الاجتماعي، فإن بعض المسائل الخاصة بالتنوع والاتصال اللغوي لم تكن تؤخذ على محمل الجد، وهي مسائل تلعب دوراً أساسياً في دراستنا. لقد كانت أهمية عنصر التنوع اللغوي محل ملاحظة إيرفين تريب (Ervin-Tripp 1986: 219-20) والتي ساهمت في البحث حول موضوع المخاطبة بملاحظتها أن "الانتماء إلى ذات اللغة لا يعني بالضرورة استخدام ما بها من قواعد لغوية اجتماعية في كافة السياقات"، فيمكن للغة أن تؤدي وظيفتها المخاطبية وفق مجموعة من الخيارات الشخصية التي قد تتمثل في استخدام قواعد خاصة يحددها الموقف. وتصوغ إيرفين تريب مجموعة من "قواعد التصادف" 'co-occurrence rules' المستخدمة في اختيار مصطلحات المخاطبة التي تحدد طريقة "الاختيار بين البدائل المتاحة لدى المتكلم في ضوء خياراته السابقة عن الموقف أو خياراته في نفس لحظة التخاطب "previous or concomitant selections" (Ervin-Tripp 1986: 240).

كانت دراسة لامبرت وتكر (Lambert and Tucker 1976) لأساليب المخاطبة في الفرنسية والأسبانية بمثابة تقدم كبير في أبحاث المخاطبة من جوانب عدة. فقد استخدم المؤلفان استبانات مفصلة مع الأطفال (وكذلك المراهقين، في معظم الحالات) كنقطة مرجعية لاستكشاف صيغ المخاطبة. وكان الباحثان من أوائل من أخذوا في اعتبارهم

التنوع اللهجي الذي يشمل اللهجات الوطنية. وقد اختار الباحثان مواقع التجربة البحثية في كندا الفرنسية وفرنسا وإقليم سان بيير أن مكيلون St Pierre-en-Miquelon، وهو إقليم يتحدث الفرنسية في الأراضي الكندية (الفرنسية)، وبورتوريكو وكولومبيا (الأسبانيتان). وقد أجريت مقارنات الدراسة في بعض الدول بين المبحوثين الريفيين والحضريين، وفي البعض الآخر بين المجتمعات المنعزلة والمجتمعات المتقاربة. واستكمل لامبرت وتكر بيانات الاستبانة التي أعداها بدراسة نفسية-لغوية للدلالة الاجتماعية لأشكال المخاطبة، وباختبارات أجريت حول إدراكات المبحوثين للأسر (مثل الأسرة المتمدينة، القديمة، الأكثر تديناً، الأكثر تعلماً، الغنية، السعيدة، الحنونة) التي تستخدم أساليب مختلفة للمخاطبة (مثل تبادل استخدام صيغة T، واستخدام الآباء لصيغة T، واستخدام الأطفال لصيغة V) وعلاقة ذلك باستجاباتهم الإيجابية، أو غير الإيجابية، أو الغامضة و/أو المحايدة لطلبات أطفالهم. ومن البيانات الأخرى التي تم تجميعها تلك البيانات المتعلقة بردود الأفعال تجاه صيغ المخاطبة غير الملائمة، وتقارير المعلمين حول استخدامهم لصيغ الT و الV عند مخاطبتهم للطلاب. وبالرغم من التفاوت الملحوظ في حجم العينات ومداها وفي توزيع المتغيرات على العينات، إلا أن الدراسة تميزت بالتنوع الثري في تناول المخاطبة.

أوضحت الدراسة أن الطبقة الاجتماعية social class تمثل عاملاً هاماً في كندا الفرنسية، غير أن عوامل العمر والنوع والتقسيم حضري-ريفي تعد أيضاً من المتغيرات ذات الدلالة الإحصائية. وكان لعامل الطبقة الاجتماعية دور أقل في فرنسا، مقارنة بكندا الفرنسية، حيث كانت عوامل العمر والنوع والتضامن وتبادل استخدام صيغة T "صيغة العفوية والمساواة" بين أفراد الأسرة من المؤثرات ذات الدلالة. وكانت عوامل العمر والنوع من العوامل الهامة في إقليم سان بيير أن مكيلون St Pierre-en-Miquelon حيث لعب الشباب الدور الأكبر في التنوع،

فتمكنت الشابات من نشر استخدام صيغ المخاطبة الأسرية العفوية في داخل المجتمع برمته. وإذا انتقلنا الى بورتوريكو Puerto Rico، نجد أن البحث قد أثبت عدم وجود قواعد ثابتة لأساليب المخاطبة داخل كل جزء من أجزاء المجتمع، ما عدا مجال علاقات الصداقة friendship domain حيث ساد تداول استخدام صيغة T "صيغة العفوية والمساواة" بشكل تبادلي بين الأفراد. وفي كولومبيا Colombia، أثبتت الأبحاث أن نوع المتكلم هو العامل الأهم، حيث كان اختلاف أسلوب المخاطبة تبعاً للنوع يظهر بجلاء بين الأطفال الكاثوليك ولكنه كان أقل اختلافاً في العينة اليهودية، حيث لعب الأطفال دوراً كبيراً في عملية التثاقف acculturation.

نقدم في الفقرات من (٢,٢,١) إلى (٢,٢,٤) رؤية عامة مختصرة للدراسات اللغوية التي تشكل خلفية أفكارنا الخاصة حول هذه الدراسة. ولما كانت اللغة الإنجليزية لا تشتمل إلا على ضمير واحد للمخاطبة وهو الضمير you، كان من الطبيعي أن تركز دراسات المخاطبة السابقة على الجانب الآخر وهو وسائل المخاطبة باستخدام الاسم. أما في اللغات الثلاثة الأخرى، والتي تحتوي جميعها على ثنائية التفرقة بين صيغتي T "صيغة العفوية والمساواة" و V "صيغة الرسمية والاحترام"، فقد ركزت البحوث السابقة التي أجريت عنها على ممارسات المخاطبة باستخدام الضمير pronominal address practices. وسنستخدم المصطلحين T و V فيما يلي في مفهومهما العام المتفق عليه (راجع (Agha 2007: 283)) توخياً للتبسيط والتيسير. غير أنه كما سيتضح لنا من الفصل الثالث والفصول التالية، فإن الدلالات الاجتماعية للصيغة T والصيغة V (وما يناظرهما من تعابير اسمية للمخاطبة) ليست، بأي حال من الأحوال، قاطعة ولا محل اتفاق بأي حال من الأحوال.

(٢,٢,١) اللغة الإنجليزية English

على عكس ما يشيع بين الكثيرين من الناطقين باللغات التي تمتلك نظاماً لغوياً تقوم فيه الضمائر بدور تمييزي pronominal distinction، نجد أن وجود ضمير واحد للمخاطبة في الإنجليزية لا يخرج نظام المخاطبة بها من دائرة التعقيد. وبالفعل، ظهرت عدة فرضيات حول الوسائل التي "تعوض" بها اللغة الإنجليزية ما بها من نقص في التمييز بين صيغة T وصيغة V. ويقارن ليتش Leech، على سبيل المثال، بين استخدام الاسم الأول first name من ناحية، واستخدام اللقب title + اسم العائلة surname (أي لفظ التبجيل honorific + الاسم الأخير last name وفق المصطلحات التي نستخدمها في هذا الكتاب) من ناحية أخرى في اللغة الإنجليزية باستخدام صيغ ضمائر T و V في اللغات الأوروبية (Leech 1999: 112). ويرى سيفيانو Sifianou من جانبه أن ثراء صيغ التأدب politeness formulas وتنوعها في الإنجليزية واستعمال الأسلوب غير المباشر indirectness بها يمكن أن يعوض ما بها من عوار في التمييز باستخدام الضمائر (Sifianou 1992, cited in Gardner-Chloros 2004: 7).

تمثل أشكال المخاطبة الاسمية في الإنجليزية مجموعة متباينة تتضمن في داخلها طائفة من الألفاظ التي يختلف استخدامها تبعاً لبعض العوامل مثل مجال العمل domain، والعلاقة بين المتكلم والمخاطب وسمات المتكلم مثل العمر والنوع. ويقسم ليتش، على سبيل المثال، الأسماء إلى فئات مختلفة وفق مقياس يبدأ بالأكثر حميمية أو مألوفية most intimate or familiar وينتهي إلى الأكثر موضوعية أو احتراماً most distant and respectful، كالآتي: (١) ألفاظ التحبب endearments مثل darling و sweetie "حبيبتي"، (٢) الألفاظ الأسرية family terms مثل mummy "ماما"، (٣) ألفاظ الألفة familiarisers مثل mate "رفيق"، (٤) الاسم الأول

المألوف familiarised first name مثل Jackie "جاكي"، (٥) الاسم الأول كاملاً مثل Jacqueline "جاكلين"، (٦) اللقب واسم العائلة (لفظ التبجيل + الاسم الأخير وفق المصطلحات المستخدمة في الكتاب) مثل Mrs Johns "حرم السيد جونز"، (٧) ألفاظ التبجيل مثل Sir "سير" أو Madam "السيدة" (Leech 1999: 110-11). ويصنف ليتش أيضاً مجموعة الألفاظ تلك وفق ثلاث وظائف: وظيفة استدعاء الانتباه to summon attention، ووظيفة التعرف على المخاطَب identify one's addressee، ووظيفة "إقامة علاقة اجتماعية بين المتكلم والمخاطب/المخاطبين والمحافظة عليها"، وهي الوظيفة الأكثر أهمية (Leech 1999: 108).

فيما يتعلق باستخدام لفظ التبجيل (ونرمز له hon) والاسم الأخير (LN) والاسم الأول (FN)، وحتى وقت قريب مضى، كان التركيب المزجي المكون من لفظ التبجيل + الاسم الأخير يعتبر أسلوب المخاطبة الافتراضي في الإنجليزية البريطانية، غير أن استخدام الاسم الأول أصبح الآن معمماً إلى الحد الذي "ازداد معه استخدام صيغة لفظ التبجيل + الاسم الأخير ليصبح قاصراً على تأسيس علاقة موضوعية محترمة مع شخص معروف لدى المتحدث" (Leech 1999: 112). وفي الوقت الحاضر، وفي العالم الناطق بالإنجليزية يتنبأ البعض بحدوث تحول سريع نحو استخدام الاسم الأول. غير أن هذه الظاهرة تعد جديدة على المتحدثين بالإنجليزية البريطانية ولا تزال مثيرة للمشكلات عند المتحدثين الذين تخطوا سن الخمسين (Bargiela *et al.* 2002: 4). لقد كان انتشار استخدام الاسم الأول ملحوظاً لا سيما في بعض المجالات مثل مجال التسويق عبر التليفون (Gardner-Chloros 2004: 7)، بينما ظل استخدام لفظ التبجيل + الاسم الأخير هو النمط الطبيعي في بعض المواقف أو المجالات الحوارية المحددة مثل مقابلات الوظائف، وعيادات الأطباء، ومواقف العمل التي تتطلب درجة من التعامل الرسمي (Bargiela *et al.* 2002: 5).

يوضح مكارثي وأوكييف (McCarthy and O'Keeffe 2003) في دراستهما للأسماء في مكنزين corpora إنجليزيين، المكنز الذي يحتوي على المحادثات العابرة بين الأسرة والأصدقاء (الإنجليزية البريطانية والإيرلندية) ومكنز المكالمات التليفونية عبر الإذاعة المسموعة (الإنجليزية الإيرلندية)، أنه فيما يخص بيانات الإذاعة المسموعة فإن مقدم البرنامج والمتحدثين يتبادلون استخدام الاسم الأول، "وهذا الاستخدام لا يعبر عن مستوى وثيق من العلاقة فحسب ولكنه قد يلعب دوراً في تأسيس مثل تلك العلاقات وديمومتها أثناء التعامل" (McCarthy and O'Keeffe 2003: 154).

وفي مجال المعاملات الخدمية service encounters يحتفظ اللفظان Sir "السيد" و Madam "السيدة" بمكانتهما في الإنجليزية البريطانية عند مخاطبة العملاء من كبار السن الذكور والإناث على الترتيب (Leech 1999: 112). أما ألفاظ الألفة familiarisers عند ليتش، والتي يطلق عليها فورمينتيللي Formentelli اسم "مصطلحات الصداقة" terms of friendship مثل mate "رفيق" أو love "حبيبي" والتي يطلق عليها اسم "صيغ المخاطبة الشبيهة بصيغة T" فإنها تستخدم بطرق معقدة في الإنجليزية البريطانية. فإذا أخذنا المصطلح mate كمثال، نجد أن هذا اللفظ كان في الماضي من مفردات كلام الطبقات الدنيا lower-class speech، لا سيما فيما بين الرجال. أوضحت دراسة فورمينتيللي للمكنز الوطني البريطاني British National Corpus شيوع استخدام اللفظ mate بعد أن قام برصد استخدام هذا المصطلح بين النساء، وبين المتحدثين من ذوي الخلفيات الاجتماعية المتباينة، وفي السياقات التجارية بين الأصدقاء. وينظر الباحث إلى هذا الشيوع على أنه "إشارة إلى العفوية المتزايدة في العلاقات الاجتماعية" في بريطانيا (Formentelli 2007). وفوق ذلك، وجد فورمينتيللي أن اللفظ mate يستخدم كمصطلح للتحبب a term of endearment في العلاقات الأسرية الوثيقة. ولوحظ أيضاً أن مقدمي الخدمات (محصلي الحافلات، بائعي الجرائد ... إلخ)، في

شمال إنجلترا، يستخدمون المصطلح love "حبيبي" مع الزبائن، بغض النظر عن مستوى الألفة أو نوع المخاطَب (Holmes 2001: 271).

جرت مناقشات مستفيضة في الإنجليزية عن إحلال المصطلحات المفردة المحايدة مثل لفظ Ms "مز"، "السيدة" سواء كانت متزوجة أم غير متزوجة في الإنجليزية محل ألفاظ التبجيل التقليدية التي تفرق في الإشارة بين السيدات المتزوجات وغير المتزوجات (ارجع، على سبيل المثال إلى (Pauwels 1998)، و (Winter and Pauwels 2007))، بعكس اللغات الأخرى التي تشملها هذه الدراسة والتي لم تستفض في مناقشة تلك المسائل بها. وهناك أدلة تؤكد تزايد استخدام لفظ Ms في الدول الناطقة بالإنجليزية، غير أنه يبدو أن العلاقة بين Miss "مس، سيدة غير متزوجة" و Ms تختلف من دولة لأخرى (Pauwels 1998: 218). فهناك ميل في الإنجليزية البريطانية لدمج Miss و Ms، على الأقل على مستوى الصيغ الرسمية، حيث يتناقص استعمال Mrs (مسز) "حرم السيد ..." مع استعمال Ms (Graddol and Swan 1989). وهكذا نلاحظ استمرار الاختلال القديم على الرغم من استخدام ما يطلق عليه "المصطلحات المحايدة الجديدة new neutral terms" (Romaine 2001: 173). ويقدم رومين بعض النتائج التي حصلها من دراسته للمكنز الوطني البريطاني British National Corpus، ومن بينها أن "استعمال Ms كلقب للمخاطبة في المملكة المتحدة لا يزال هامشياً. فلا يمثل هذا اللفظ سوى ٥٪ من أشكال ألقاب المخاطبة المستعملة بين النساء". وفي هذا الجانب تأتي الإنجليزية البريطانية بعد الإنجليزية الأمريكية، ربما بسبب سيطرة فكرة المكانة الاجتماعية في بريطانيا، وبالتالي وجود ميل أقل نحو الحراك الاجتماعي social mobility (Romaine 2001: 173).

(٢,٢,٢) الفرنسية French

تمثل ثورة الطلبة والعمال في فرنسا في عام ١٩٦٨م (انظر الفقرة ١,١) تحولاً مميزاً في أنماط المخاطبة في الفرنسية. وتميز هذا التغير، والذي أعاد إلى الأذهان أصداء فرض المخاطبة بـtu "أنت، للعفوية والمساواة" أثناء الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر بالإضافة إلى الاسم الأول بطريقة تعبر عن "المساواة" egalitarian use، لا سيما بين الطلاب والعمال، بل وبين أفراد الطبقة البرجوازية المتعاطفين مع قضايا الثورة. وكما لاحظ كالفيه Calvet في بداية ثمانينيات القرن الماضي، فإن التخاطب بـtu قد شاع نظراً للميل المتأصل نحو استخدام هذا الضمير ونتيجة للتغير الثقافي الذي حدث في مايو ١٩٦٨م، وهو تغير ظهر تأثيره في الجامعات بصفة خاصة (Calvet 1976: 16). غير أن الحركة الاجتماعية social movement والتي كان من رموزها شيوع المخاطبة بـtu كانت قد فقدت ما بها من زخم مع نهاية سبعينيات القرن الماضي (راجع، مثلاً، (Seidman 2004))، ليعود الضمير vous ليظل برأسه مع غيره من الصيغ الأكثر رسمية في المخاطبة (Coffen 2002: 235)، ومع ذلك بقيت جيوب من مؤيدي حركة ٦٨ sixty-eighters (soixante-huitard) ظلت محافظة على استخدامها لـtu كدلالة على المساواة، وحافظت على هذا الاستخدام أيضاً بعض المؤسسات الخدمية التي تعمل في مجال تعليم الكبار tertiary institutions حيث يعتبر tu هو الضمير الشائع بين المعلمين مع بعضهم البعض، وبين المعلمين والإداريين، وهذا من التقاليد التي ظلت قائمة في فترة ما بعد عام ١٩٦٨م.

وعلى الرغم من تلك التغيرات التي طرأت منذ عام ١٩٦٨م وما بعده، كان الضمير vous "أنت، الخاص بالرسمية والاحترام" لا يزال يعتبر خلال سبعينيات القرن الماضي الصيغة المحايدة أو الافتراضية. ولاحظ رولان بارت Roland Barthes، على سبيل المثال، أنه في ذلك الوقت "كانت اللافتات تكتب بصورة محايدة، وكان الضمير vous في

الفرنسية يمثل تلك الخلفية المحايدة" (Barthes 1971). وكما ذكر هالموي (Halmøy 1999: 564) كانت النظرة حول حيادية الضمير vous ذائعة في نهاية تسعينيات القرن الماضي. أما في الوقت الحاضر فيعتبر الضمير tu الصيغة الافتراضية (Havu 2005, Peeters 2004) المستخدم بين الأجيال الشابة، في حين لا يزال الضمير vous يحتفظ بمكانته بين الأجيال من كبار السن كضمير محايد (Havu 2005). ليس واضحاً إن كان استخدام tu من قبل الأجيال الشابة دليلاً على تغير متنام، أم أنها حالة من حالات التدرج العمري age grading؛ بمعنى أنه حينما تتقدم الأجيال الشابة في العمر وتتحرك في دورة الحياة قد يقل استخدامها للضمير tu (انظر (Gardner-Chloros 1991, Havu 2005, Peeters 2004))، بعكس فترة ما بعد التقاعد والتي قد يستخدم فيها كبار السن الضمير tu بمعدل أعلى، إذ إنهم يكونون حينئذ قد تحرروا من التزامات التسلسل الهرمي التي تفرضها عليهم بيئة العمل الذي يعملون به (Gardner-Chloros 1991). ويظل tu لدى كل من الأجيال المسنة والشابة هو خيار المخاطبة الذي يستخدم بين أفراد الأسرة ومع الأصدقاء المقربين (راجع، على سبيل المثال، (Gardner-Chloros 1991, Hughson 2001)).

أجريت العديد من الدراسات حول ضمائر المخاطبة في الفرنسية، لا سيما في تسعينيات القرن الماضي وما بعدها، وقد قام عدد كبير من تلك الدراسات على أساس تجريبي، وقد تم فيها تحديد العديد من العوامل التي تؤثر في اختيار tu أو vous منها العمر النسبي relative age بين المتكلم والمخاطب، ومدى معرفة المتكلم بالمخاطب، ونمط التفاعل، وحدوث تفاعل في العمل أو بيئات جماعية مثل الأندية الرياضية، ودرجة التفاعل التبادلي بين المتخاطبين والتي غالباً ما تكون على أساس المظهر الخارجي للمتكلم أو المخاطب (راجع على سبيل المثال Havu ,Gardner-Chloros 1991) (2005, 2006, Hughson 2001, Kerbrat-Orecchioni 1992). وفوق ذلك، فقد تم دراسة التنوع الجغرافي في داخل فرنسا، حيث وجد هافو، على سبيل المثال، في دراسة عن

استخدام ضمير المخاطبة في باريس Paris وميتس Metz وتولوز Toulouse وليون Lyon، أن المشاركين من الباريسيين قد بدا عليهم التردد في اختيار الضمير أكثر من غيرهم من المتحدثين في المدن الأخرى (Havu 2006).

تؤكد مورفور (Morford 1997) في دراستها حول استخدام المتحدثين بالفرنسية القياسية standard French لأساليب المخاطبة في منطقة العاصمة، باريس، على أهمية السياق context في تحديد استخدام الضمير في المخاطبة. وتضع مورفور إطاراً لتحليلها في ضوء المحدد الاجتماعي social indexicality، أي الوظائف التداولية pragmatic functions لضمائر المخاطبة. وترى الباحثة أن كلاً من الضميرين tu و vous يمكن أن "يشيرا" point ليس إلى العلاقات بين المتخاطبين فقط ولكن إلى طبيعة الموقف أيضاً. وتعطي الباحثة مثالاً على ذلك من خلال الاستخدام التبادلي للضمير vous بين محاميين يعرفان بعضهما البعض جيداً، وكان من الطبيعي في موقف كهذا أن يتخاطبا بـtu، غير أنهما حينما يجدان نفسيهما في المحكمة يتخاطبان بـvous، اعترافاً منهما بما يقتضيه التواجد في البيئة الرسمية.

وقد انصب اهتمام الدراسات الحديثة حول tu و vous على إستراتيجية الهوية identity strategy وإستراتيجية تقديم الذات للآخرين self-presentation strategy وهما الإستراتيجيتان اللتان نرى أثرهما في اختيار ضمير المخاطبة المناسب. وأكد كيربرات-أوريتشيوني (Kerbrat-Orecchioni 1992: 49-50) على أن تطبيق قواعد التمييز بين صيغتي T و V إنما هي مسألة "تقييم فردي" individual appreciation تقوم على "التفاوض" negotiation. وفضلاً عن ذلك، فإنه يمكن استخدام أشكال المخاطبة الأخرى كحدود "لاحتواء فرد ما في داخل الجماعة التي ينتمي المتحدث إليها أو إقصائه منها. وتسمح هذه العملية في الاحتواء أو الإقصاء للمتحدثين من إقامة تلك الحدود وتعزيزها وبناء هوية جماعية وفردية" ((Coffen 2002: 285)؛ انظر أيضاً

(Coffen 2003)). ويؤكد جاردنر-كلوروس Gardner-Chloros على أهمية تلك الوظيفة التي تمثل الهوية (Gardner-Chloros 2007: 107) إذ يرى أن "استخدام أفراد بعينهم لنمط T أو V يعد بمثابة "فعل من أفعال الهوية" Act of Identity [...]، أي وسيلة من الوسائل التي يحدد بها الفرد مجموعة الأفراد أو الجماعات التي يبغي أن ينتمي إليها أو ينأى عنها". وسنقوم لاحقاً في هذا الفصل بتناول بُعد الهوية كعامل من عوامل تحديد الخيار اللغوي (انظر الفقرة ٢,٣,٥).

(٢,٢,٣) الألمانية German

أحدثت الثورات الطلابية التي اندلعت مع نهاية ستينيات القرن العشرين تغيراً كبيراً في استخدام أساليب المخاطبة باللغة الألمانية تماماً كما كان الحال في اللغة الفرنسية. ويشير باير (Bayer 1979)، على سبيل المثال، إلى أن التغيرات المضادة للسلطوية في الجامعات الألمانية في أواخر ستينيات وبداية سبعينيات القرن الماضي قد أسست نظامين متضادين للمخاطبة، أولهما نظام المخاطبة التقليدي الذي يقوم على الضمير المحايد "غير الموسوم"، الضمير الذي يمثل صيغة V، ويقابله ضمير V آخر موسوم marked ويستخدم في التعبير عن العلاقات الوثيقة، ويقوم النظام الآخر على الضمير T غير الموسوم والذي يستخدم في التعبير عن التضامن في مقابل الضمير V الموسوم الذي يستخدم في التعبير عن التفاوت الاجتماعي social distance. وكان النظام الأخير محل استخدام الطلاب وبعض أعضاء هيئة التدريس بالجامعات (خصوصاً الشباب منهم والهيئة المعاونة للأساتذة sub-professorial). لقد ظهرت حالات كثيرة من سوء الفهم بين مستخدمي نظامي المخاطبة، إذ ترى كلتا المجموعتين النظام الآخر على أنه نظام يقوم على المواجهة (سواء القمعية أو العدوانية). غير أنه كانت هناك ردة عن هذا التطور داخل المجتمع الأكاديمي منذ ذلك الوقت وكان هناك ميل لإعادة ترسيم الحدود

بين المعلمين والطلاب بالعودة إلى الاستخدام التبادلي للضمير Sie "أنت، الخاص بالرسمية والاحترام" بينهم (انظر (Amendt 1995)). ويعود الميل إلى التراجع في استخدام الضمير du "أنت، الخاص بالعفوية والمساواة" إلى امتعاض بعض الشباب من فرض الأساتذة، بصورة سلطوية، لأسلوب مخاطبة يحمل في طياته مساواة زائفة pseudo-egalitarian لا تعبر عن وجود بنية اجتماعية هرمية. وبصفة عامة، فإن مثل تلك التطورات لم تُحدث سوى تأثير طفيف على باقي أفراد المجتمع، ولعل التغير في كيفية فهم النظامين المتضادين يعد الآن من رواسب تلك التطورات، ومع أن النظامين قد بقيا إلا أن دلالتيهما الاجتماعية قد تغيرت مما أحدث لبساً عند المتخاطبين.

ويقدم هيكي (Hickey 2003) نظام المخاطبة بالألمانية كنظام يجمع بين كونه نظاماً ثنائياً، ونظاماً قياسياً scalar؛ فهو ثنائي لوجود ضميرين للمخاطبة وقياسي لوجود العديد من الوسائل اللغوية التي تهيئ لوجود فروق دقيقة nuance تتخطى النظام الثنائي. فإضافة الاسم الأول إلى الضمير V والاسم الأخير إلى الضمير T، والاختزال الصوتي للضمير du إلى ste- كما نراه في فعل الأمر !Siehste "انظر" (Siehst du=) في سياقات الـV، واستخدام الضمير ihr "أنتم" في مخاطبة مجموعة مختلفة من المخاطبين من درجات T و V، والاستخدام العام للضمير du في مخاطبة الموتى وفي المرثيات، كل ذلك من شأنه أن يخلق نظاماً يختلف كثيراً عن النظام الثنائي، غير أنه يُحدث نفس التأثير الذي يُحدثه التخاطب بالصيغ الرسمية والعفوية عند إلقاء تحيات اللقاء والوداع على الآخرين.

وبعيداً عن استخدام ضمائر المخاطبة عن العلاقات الاجتماعية، يمكن لاختيار ضمير معين للمخاطبة، وفق ما أورده هيكي (Hickey 2003)، أن يعبر عن توجه سياسي أو علاقة عمل. فيمكن لاختيار ضمير معين من ضمائر المخاطبة أن يؤدي إلى إقصاء بعض الأفراد من الجماعة، وأن يحدد مدى التفاوت الاجتماعي، بل و يمكن أن يستخدم في إلحاق الإهانة بالآخرين. ويناقش هيكي قضية التغيرات الدائمة في كلا

الاتجاهين، ويناقش قضية أحقية المبادرة في عرض علاقة تقوم على استخدام الضمير T "ضميرالعفوية والمساواة"، ولماذا يمكن أن ترفض تلك المبادرة، وتوقيت المبادرة بإقامة علاقة من هذا النوع، وتفسير حدوث أي نوع من أنواع التغير.

في حين أصبح عامة الناس أكثر إدراكاً للتعقيدات التي تكتنف أنظمة المخاطبة، فقد ازداد الاهتمام بهذا الموضوع نظراً لما يحظى به من نقاش عام في الإعلام وفي الكتب التي تخاطب شريحة واسعة من القراء. وأحد الأمثلة على ذلك هي معالجة فيرنر بيش Werner Besch الشهيرة للمخاطبة في اللغة الألمانية كظاهرة من ظواهر التاريخ الثقافي والتي تعد مصدراً ثرياً للخلفية الثقافية (Besch 1998). وقد أوضحت استطلاعات الرأي الدورية العامة التي يجريها معهد السكان Institut für Demoskopie في ألمانيا (Allensbach 2003) منذ عام ١٩٧٤ م الحقائق التالية حول ممارسات المخاطبة:

- يتزايد استخدام الضمير du في كل الاستطلاعات بين معظم الفئات العمرية.
- يرتبط تزايد استخدام الضمير du بفئة الشباب، مع تراجع استخدام الضمير كلما تقدم السن.
- هناك ارتباط بين الآراء السياسية اليسارية والتبني المبكر لاستخدام الضمير du.
- استخدام الضمير du بصورة أكثر شيوعاً من جانب الرجال، والحاصلين على مؤهل جامعي، والصبية ممن في طور التدرب على حرفة من المهن apprenticeships.
- شيوع استخدام الضمير du في ألمانيا الغربية منه في ألمانيا الشرقية.

(٢,٢,٤) السويدية Swedish

إذا ما قارنا اللغة السويدية بالعديد من اللغات الأوروبية الأخرى مثل الألمانية أو الفرنسية، نجد أنها قد مرت بتغيرات جذرية في أنظمة المخاطبة باستخدام الضمير في المائة عام الأخيرة. فقد قام أجرين (Ahlgren 1978) برصد التطور التاريخي المعقد

لضمائر المخاطبة السويدية، مثل الضمير du الذي يمثل صيغة العفوية والمساواة T، والضمير ni الذي يمثل صيغة الرسمية والاحترام V، وقد قام ألجرين بتفسير ذلك على أنه انعكاس للشيوع المبكر والذائع لاستخدام الألقاب، حيث كان الضمير ni يُستخدم بصورة أساسية لمخاطبة شخص ما يفتقر إلى اللقب ولكن كان لزاماً عليه أن يرد بلقب الشخص الأعلى منه مكانة (Ahlgren 1978: 78). ونظراً لأن الضمير ni كان له إيحاءات سلبية، إذ إنه يوحي بالدونية الاجتماعية، لم يكن من الممكن توظيفه بين النخبة الاجتماعية social elite لمجرد إظهار التفاوت في المستوى الاجتماعي وكانت الإمكانية الوحيدة الباقية هي استخدام لقب المُخاطَب وتجنب المخاطبة المباشرة في كل الأحوال عن طريق تحاشي استخدام الضمائر تماماً. وكان إريك فيلاندر Erik Wellander، وهو مخطط لغوي معروف في بداية القرن العشرين، من كبار المؤيدين لإعادة استخدام الضمير ni كصيغة متأدب من أشكال المخاطبة (Wellander 1935)، غير أن محاولات إقناع المجتمع بقبول ni لم تفلح. ووفق رؤية بولستون Paulston، فإن ni قد جاء بعد فوات الأوان (Paulston 1976: 365)، إذ إن الضمير du والذي بدأ انتشاره في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي كان قد حل محله. ويُرجع ألجرين هذا الأمر إلى الاستخدام الكثيف للألقاب وتجنب استخدام ni من ناحية، ولكنه نظر، من ناحية أخرى، إلى هذا الأمر على أنه تغير يحدث من القاع، بين عامة الناس (Ahlgren 1978: 84-5). وحينما قاد برور ريكسيد Bror Rexed، الذي كان حينئذ يعمل كمدير للإدارة الصحية بالسويد، الاتجاه إلى تبني استخدام الضمير du بين كافة العاملين في الإدارة قرب نهاية الستينيات في القرن الماضي، عرف هذا الحدث باسم "الإصلاح باستخدام du" 'du-reform' (انظر على سبيل المثال (Teleman 2003)). في حين لم يكن "الإصلاح باستخدام du" إصلاحاً رسمياً، إلا أن ما قام به ريكسيد كان يعد تجسيداً لما كان يدور في تلك الأيام. فقد كان شكل المخاطبة جدياً، يقوم على روح التضامن ويتسق مع مثل

المساواة التي كانت تنادي بها الحركة الديمقراطية الاجتماعية التي تسيدت المجتمع السويدي في فترة نهاية الستينيات. مع أواسط الستينيات كان الضمير du قد حل محل نظام المخاطبة في السويد والذي اشتهر بإغراقه في الرسمية وتجنبه للخطاب المباشر واستخدامه للألقاب بصورة ملزمة متى كانت تلك الألقاب معلومة.

غير أن هذا التطور كانت له مشكلاته، إذ إن أنماط الاستخدام كانت متباينة لدى طوائف مختلفة من أفراد المجتمع السويدي (Paulston 1976). ففي حين يؤكد البحث الذي أجراه بولستون التحول السريع أثناء الستينيات والسبعينيات نحو استخدام du في كافة السياقات، يصف مارتينسون (Mårtensson 1986) ظهور الضمير ni، والذي يعبر عن صيغة V "الرسمية والاحترام"، وقيامه بوظيفة جديدة، أقل ارتباطاً بالتسلسل الهرمي الطبقي، وظيفة تعبر عن الاحترام وتستخدم بصفة خاصة في المعاملات الخدمية للتعبير عن التفاوت القائم على الاحترام polite distance. غير أن دراستين حديثتين إحداهما عن استخدام المخاطبة في الحديث المنقول reported address use (Norrby and Håkansson 2004) وأخرى عن استخدامها في الحديث المباشر في المعاملات الخدمية (Tykesson-Bergman 2006) لم تدعم فرضية عودة صيغة V للظهور مرة أخرى.

وقد قامت دراسة مارا وهلدن (Mara and Huldén 2000) بتتبع تطور ممارسات المخاطبة في اللغة السويدية في فنلندا. وهنا أثبت الباحثان أن التطور التاريخي للمخاطبة في اللغة السويدية في فنلندا كان شبيهاً بما حدث في السويد، غير أن الضمير ni لم يكن له الإيحاءات السلبية التي كانت سائدة في السويد، ومن ثم لم يكن استخدامه مقيداً كما كان الحال في السويد. ومع أن حركة الإصلاح باستخدام du قد أدت إلى انتشار كبير للضمير du العفوي، إلا أن هذه الحركة الإصلاحية لم تكن في فنلندا بنفس القوة التي كانت عليها في السويد. وقد فسر البعض هذه الظاهرة على أنها ظاهرة اتصال لغوي تأثرت فيها الأنماط الاتصالية للغة السويدية بالأنماط

الاتصالية في اللغة الفنلندية (Saari 1995)، فاللغة الفنلندية تتميز بمستوى عال من الرسمية والأسلوب غير المباشر (Saari 1995, Fremer 1998) مما أدى إلى الانطباع بأن الاتصال عبر الفنلندية هو اتصال "انسحابي ومراوغ" withdrawing and evasive (Yli-Vakkuri 2005: 200). وفيما يختص بممارسات المخاطبة في الفنلندية، نجد أن الصيغة الذي يمثل صيغة V "صيغة الرسمية والاحترام"، وهو الضمير te "أنت"، يستخدم بصورة أكثر تكراراً في الفنلندية عنه في السويدية، ولكن الأمر الأهم الملحوظ الذي يميز الفنلندية هو تجنبها للأسلوب المباشر في المخاطبة، مع ارتفاع معدل أسلوب الإشارة غير المباشرة للمخاطَب من خلال استعمال تراكيب مثل المبني للمجهول وضمير الغائب (Saari 1995, Fremer 1998, Nyblom 2006).

(٢,٣) قضايا نظرية
Theoretical Issues

أما وقد رأينا أن المخاطبة مندمجة في داخل التفاعل الاجتماعي، فإننا ننتقل في الفقرات التالية إلى مناقشة الأطر النظرية التي نشأت لتحليل وفهم التفاعل والعلاقات الشخصية وعلاقتهما بالمخاطبة.

(٢,٣,١) التأدب Politeness

تحتاج أي دراسة للتعبير اللغوي عن العلاقات الاجتماعية أن تأخذ في الاعتبار فكرة التأدب، والتي كتبت عنها الكثير من الدراسات ومن زوايا مختلفة (انظر، على سبيل المثال، (Brown and Levinson 1987)، و (Fraser 1990)، و (Holtgraves 2001)، و (Watts, Ide and Ehlich 1992)، و (Watts 2003)، و (Lakoff and Ide 2005)). ويقسم هولتجريفز المقاربات الخاصة بالتأدب تقسيماً مفيداً إلى فئات ثلاث:

(أ) "الرؤية الاجتماعية المعيارية للتأدب" التي تنظر إلى التأدب على أنه اتباع مجموعة من القواعد الملائمة للسياق[٢].

(ب) الرؤية التداولية للتأدب، والتي يعد التأدب وفقاً لها عاملاً من عوامل تأسيس ما يسمى بالكفاءة التداولية (انظر (Leech 1983)، و (Lakoff 1973)).

(ج) "رؤية التأدب وفق كيفية إدارة الفرد لوجاهته الاجتماعية" face management view of politeness ويكون المبدأ الحاكم للسلوك المتأدب في التفاعل هنا هو الحفاظ على تلك الوجاهة (Goffman 1967, Brown and Levinson 1987).

ويعرف جوفمان فكرة الوجاهة Face على أنها "القيمة الاجتماعية الإيجابية التي يدّعيها المرء بصورة فاعلة لنفسه مقارنة بالقيمة الاجتماعية التي يفترض الآخرون أنه قد اكتسبها أثناء اتصال ما" (Goffman 1967: 5)، وهذا يعني أن تقديم الشخص لنفسه في تفاعل اجتماعي ما هو "ادعاء بالاستحواذ على مكانة اجتماعية محددة" ويسعى المتحدث للوفاء بما يتوقع منه في هذه المكانة المدعاة (Svennevig 1999: 23). وهكذا فإن الذات self تعد بنية اجتماعية يقوم صاحبها بأدائها أو تقديمها. فمن المهم للمشاركين في المحادثة التصرف وفق "الوجاهة" أو صورة الذات التي يرغبون في عرضها والتصرف بالطريقة التي لا تهدد وجاهات الآخرين (Goffman 1967).

ومن بين من تأثروا بنموذج جوفمان للوجاهة براون وليفنسون (Brown and Levinson 1987). وكانت نظريتهم حول التأدب ترتكز على ثلاث لغات لا ترتبط ببعضها وهي الإنجليزية، ولغة التاميل (إحدى اللغات الدرافيدية Dravidian language)، ولغة التزلتال Tzeltal (وهي إحدى لغات المايا) وحضاراتها. وتقوم هذه النظرية في الأساس على أن المتحدثين ذوي الخلفية الثقافية المشتركة يكون لديهم نفس الافتراضات عن

(٢) انظر أيضاً دراسة فريزر ونولين (Fraser and Nolen 1981) حول فكرة الاتصال الحواري 'conversational contract'.

التأدب والتي تشكل اختياراتهم لإستراتيجيات الاتصال المناسبة. ويفرق براون وليفنسون بين الوجاهة السلبية، أي الحاجة إلى ألا يفرض عليك الآخرون الوجاهة، والوجاهة الإيجابية، أي الحاجة إلى أن يتقبلك الآخرون. ويفرق براون وليفنسون أيضاً بين التأدب السلبي، حيث يتم تجنب الصراع من خلال التواضع، والرسمية وضبط النفس، والتأدب الإيجابي الذي تتأسس من خلاله علاقة أوثق مع المتخاطب من خلال علاقات المصارحة frank relations.

وُجِّه النقد إلى نظرية براون وليفنسون لادعائها العمومية. فيرى آيدي (Ide 1989)، على سبيل المثال، أن النموذج الذي تقدمه تلك النظرية لا ينسحب على التأدب في اللغات ذات الأنظمة التبجيلية honorific systems التي تحول فيها التقاليد الاجتماعية (مثل مكانة الفرد في المجتمع) دون حرية اختيار الصيغة التخاطبية أثناء التفاعل، كما يظهر في المفهوم الياباني"واكيمي" wakimae (أي "الكياسة" discernment). لا يراعي هذا النموذج أيضاً الارتباط الوثيق بين اختيار إستراتيجية ما من إستراتيجيات التأدب والخلفية الثقافية للمتخاطب (انظر، على سبيل المثال، (Ide 1989)، و (Matsumoto 1989)، و (Kasper 1994)). وتتنوع المبادئ الاتصالية عبر الثقافات وبالتالي يصعب توصيفها جميعاً في إطار نموذج واحد.

ينتقد واتس (Watts 2003) براون وليفنسون أيضاً، لا سيما في تقسيمهما للتأدب إلى إستراتيجيات تأدب إيجابية وإستراتيجيات تأدب سلبية وفهمنتهم له على أنه اختيار عقلاني للمتحدث ينتقيه من تصنيف لخيارات تأدب معدة سلفاً (Watts 2003: 87-8). والحجة الرئيسة التي ساقها واتس هي أن الباحثين المهتمين بالتعبيرات اللغوية للتأدب بحاجة إلى التخلص من سيطرة فكرة بناء نموذج نظري يحول دون النظر إلى واقع ما يحدث من مفاوضات للتأدب في السياقات التفاعلية، ومن ثم يدعم واتس ما يعتبره تغيراً جذرياً في التفكير حول مسألة التأدب. ووفقاً

لفكر واتس، ينبغي على الباحثين التركيز على الأفكار الشائعة للتأدب و"التماس السبل للنظر إلى مفهوم التأدب اللغوي على أنه جزء لا يتجزأ مما يحدث في التبادل التفاعلي" (Watts 2003: 255). بمعنى آخر، لا ينبغي النظر إلى التأدب على أنه مفهوم ساكن وقالب موجود سلفاً pre-existing أو على أنه قائمة من الإستراتيجيات ولكن ينبغي النظر إليه ككيان يشيده المتخاطبون بصورة ديناميكية. ويعد "السلوك اللائق" politic behaviour، وفق هذا النموذج، هو السلوك اللغوي وغير اللغوي الذي يراه المتخاطبون ملائماً في سياق معين. أما السلوك المؤدب، من ناحية أخرى، فهو نتاج الأفعال التي تتخطى إلى أبعد ما يجده المتخاطبون لائقاً في سياقه ويتعدى حدوده ((Watts 2003: 259) ؛ انظر أيضاً (Watts 1989, 1991)).

إذا ما طبقنا ما سبق من أفكار على صيغ التخاطب، فيمكن القول إن استخدام صيغة معين من صيغ التخاطب، مثل استخدام الضمير vous في الفرنسية، يعد لائقاً إذا كان المتخاطبون يتعاملون مع استخدامه كسلوك طبيعي متوقع، بينما يمكن اعتبار نفس هذه الصيغة متأدبة إذا ما فاق حدود التوقع في سياق آخر. ووفق هذه الرؤية، تعد ممارسات المخاطبة ممارسات نسبية وقابلة للتفاوض الديناميكي. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو، هل يعني تبني مثل هذا المدخل أن أي دراسة لأساليب المخاطبة أو غيرها من أشكال الممارسة الاجتماعية ينبغي أن تركز على التفاعلات الواقعية فحسب؟ الإجابة على هذا السؤال يجب أن تكون واضحة: لا. فالأفراد ينخرطون في أنماط شتى من التفاعل، وهم يحملون معهم، إلى حد ما، زمرة من الفرضيات المشتركة حول ماهية السلوك اللائق وفق الموقف المحدد، ووفق معرفتهم بالعالم، ووفق تاريخهم شبه المشترك وخبراتهم الثقافية، أي وفق السياق المشترك لخلفياتهم (Linell 1998, Morford 1997: 8).

يمكن اختبار الافتراضات التي سقناها بشكل مفيد، ليس عن طريق اختبار التفاعلات الواقعية فحسب، بل أيضاً عن طريق المعلومات المتحصلة من الأفراد وخبراتهم وآرائهم حول تلك الخبرات وحول ممارسات المخاطبة التي يقومون بها في داخل مجتمع لغوي محدد أو شبكات اجتماعية محددة، وهذا ما تسعى هذه الدراسة إلى القيام به. وتناقش دراسة نيدزيلسكي وبريتسون (Niedzielski and Preston 2000) التوتر التاريخي بين معتقدات المجتمع حول (أ) اللغة و (ب) ادعاءات علماء اللغة حول الموضوعية. وإننا نتفق في رؤية كلا الباحثين إلى أن المتحدثين أنفسهم، من خلال ما يبدون من آراء حول الاستخدام اللغوي يضعون أساساً حتمياً لفهم اللغة والمجتمع. غير أن دراستنا تأخذ منحى مختلفاً عن العديد من الدراسات الأخرى التي ذكرها نيدزيلسكي وبريتسون في أننا قد ضمّنا في دراستنا هذه مجموعات للدراسة focus groups، وليس مجرد تصورات فردية (انظر الفقرة ٢,٤,١).

(٢,٣,٢) الأرضية المشتركة Common Ground

إنه لجدير بنا أن نتعمق في دراسة دور الافتراضات المشتركة وطبيعتها في التفاعل الاجتماعي، ولعل إحدى الطرائق التي يمكن أن نفكر من خلالها بشأن تلك الافتراضات يكمن في مفهوم "الأرضية المشتركة" (انظر، على سبيل المثال، دراسة (Clark 1996)) والذي يعرّف بأنه "المعارف المشتركة، والمعتقدات المشتركة، والافتراضات المشتركة، والوعي المشترك" (Svennevig 1999: 55) وتحكم هذا المفهوم ضوابط ثقافية وسياقية. ويمكن أن تتأسس الأرضية المشتركة على مستويين: المستوى الشخصي والمستوى العام. فيرتبط المستوى الشخصي بالخبرة الشخصية المباشرة للفرد، أما المستوى العام فيرتبط بانتماء الفرد إلى مجتمع ثقافي محدد، وهذا المجتمع الثقافي يعني "مجموعة من الأفراد لهم خبرات مشتركة لا تتوافر لدى مجتمع آخر" (Svennevig 1999: 56). ولكن، ما علاقة فكرة "الأرضية

المشتركة" بفهم ممارسات المخاطبة؟ على المستوى الاجتماعي العام هناك فهم مشترك لما تكون عليه أنماط المخاطبة الافتراضية داخل مجتمع ثقافي محدد، أما على المستوى الشخصي فإن الخبرة المشتركة والمباشرة بين الأفراد في مجموعة محددة من المواقف تعد محدد القرار الذي يتخذه الفرد بشأن استخدام صيغة ما من صيغ المخاطبة دون الآخر. ويمكن أن يمتزج كلا المستويين في تأسيس الأرضية المشتركة بين الأفراد. فإذا ما أخذنا، على سبيل المثال، أحد نوادي ممارسة رياضة كرة الريشة badminton club في باريس، فإن الأرضية المشتركة هنا تتأسس من خلال الانتماء إلى مجتمع ثقافي يمارس كرة الريشة ومن خلال العلاقات الشخصية القائمة والمستمرة من خلال اللعب مع مجموعة من الأفراد ذوي أمزجة متماثلة يلبسون زياً عفوياً كالسراويل القصيرة والقمصان ذات الأكمام القصيرة، مما يهيئ الظروف المواتية لتبادل استخدام الضمير tu بين الأفراد.

وفوق ذلك، يعد مفهوم الأرضية المشتركة من المفاهيم المفيدة في فهم التفاعلات بين الغرباء وكيفية عملها. وبصورة أساسية، نجد أن "الغرباء هم مجموعة من الأفراد لم يؤسسوا أي أرضية مشتركة على المستوى الشخصي" (Svennevig 1999: 58)، غير أن الأرضية المشتركة يمكن تحديدها على أساس المواقف circumstantial أو الأحداث episodic ((Clark 1996: 117-19)؛ انظر المناقشة في (Svennevig 1999: 59)). وتشير المواقف إلى العناصر المادية للموقف كمظهر المتخاطب وملبسه، أما الأحداث فتشير إلى الأفعال التي يمارسها المتحدثون مثل أنماط بوادئ المحادثات التي يستعملونها. وتوضيحاً لذلك، فإنه من الشائع عند مقابلة شخص لآخر لأول مرة أن يتبادلا الأسئلة والردود حتى يمكن تأسيس أرضية مشتركة. ومن الأمثلة النمطية لتلك الأسئلة السؤال عن محل إقامة الشخص وعمله، وهي أنماط أسئلة تيسر الحصول على أكبر قدر من الاستنتاجات حول مدى القواسم المشتركة بين الأفراد، لذا فإن المقابلات الأولى تنطوي على نوع من تصنيف الانتماء membership categorisation (Sacks 1992: 40-8).

ولعل السؤال الأساس في المقابلة وهو: "هل أنت مثلي أم مختلف عني؟" يجعل تصنيف الانتماء عند مقابلة الغرباء بمثابة محاولة "لفهم" الآخر في ضوء ما لدى الفرد من تصنيفات للانتماء. ويمكن أن يعاد النظر، بالطبع، في تصنيف الانتماء الأوّلي للغرباء حينما تظهر معلومات أخرى و"أدلة" أخرى. وسوف نعود لمناقشة قضية تصنيف الانتماء عند مناقشة موضوع اختيار صيغ المخاطبة الملائمة في الفصل الثالث.

لاحظ براون وجيلمان، في الستينيات، أهمية دور القواسم المشتركة shared commonalities قائلين: "يبدو لنا أن أوجه التشابه المؤثرة (في تبادل استخدام صيغة T بين المتخاطبين) تشمل كل ما من شأنه أن يسهم في إيجاد ميول سلوكية متشابهة أو متطابقة في الرؤية، مثل الانتماء السياسي، والأسرة، والدين، والمهنة، والنوع، ومحل الميلاد" (Brown and Gilman 1960: 258). وتقترب هذه الفكرة من فكرة كالماير Kallmeyer وهي فكرة "القواسم المشتركة الملحوظة" perceived commonalities، والتي تشمل الاهتمامات، والانتماءات، مثل الانتماء إلى عضوية نفس النادي، والاتجاهات ومحل الإقامة (Kallmeyer 2003).

تعد فكرة وسم التماثل أو الاختلاف من الأفكار التي أثرت في تطور نظرية التماثل accommodation theory (انظر، على سبيل المثال، (Giles 1984)، و (Giles, Coupland and Coupland 1991)). فيمكن للمتحدثين، وفق هذه النظرية، من خلال التوافق أو الاختلاف في الأنماط اللفظية وغير اللفظية مع المتخاطبين معهم، أن "يشيروا إلى انتماء المتخاطبين أو يعبروا عن التضامن معهم واقعياً، أو يعبروا عن الانسلاخ عن هؤلاء المتخاطبين بصورة تبادلية وديناميكية" (Giles, Coupland and Coupland 1991: 2). ويكمن وراء التوافق بين المتخاطبين باعث إنساني متأصل لتأسيس التعايش مع الآخرين، بينما يعبر الاختلاف عن باعث إنساني للتعبير عن الفردانية individuality

(Svennevig 1999: 24)، فالبشر في طبيعتهم أن يكونوا مؤثرين للذات self-oriented أو مؤثرين للآخر other-oriented (Kerbrat-Orecchioni 1992).

بناء على ما سبق يمكن افتراض وجود ثلاث مراحل عند مقابلة شخص من الغرباء. وتتمثل المرحلة الأولى في تصنيف الانتماء وهي عملية تحدث بشكل فوري، إلى حد ما. وتتمثل المرحلة الثانية في عملية اتخاذ القرار حول وجود تشابه من عدمه، وفي حال وجود تشابه ملحوظ بصورة كافية، قد يأمل المتحدث ساعتها في التعبير عن التوافق مع الشخص الآخر أو الانتماء إليه. وهذا العمل العلاقي relational work يمكن أن يتم من خلال تعبيرات لغوية متعددة، بما في ذلك، بالطبع، تبادل المخاطبة بنفس الضمير، أو تبادل استخدام الاسم الأول. أما المرحلة الثالثة، وهي نتاج الخطوتين الأوليين، فهي مرحلة التيقن من وجود أرضية مشتركة بين الطرفين، وهي، في الأغلب، عملية تفاوضية مستديمة.

تركز فكرة الأرضية المشتركة على كل ما هو مشترك، أي عناصر الاتفاق أكثر منها على عناصر الاختلاف، ونحن نحتاج، في الواقع، إلى نموذج، لا يمكننا من تمييز درجات التشابه فحسب بل ودرجات الاختلاف أيضاً، ومن ثم، فإننا نعود، في الفقرة التالية، إلى أحد متغيرات نظرية التأدب politeness theory، كما صاغها براون وليفنسون (Brown and Levinson 1987)، ألا وهو المتغير الخاص بالتفاوت (الاجتماعي).

(٢,٣,٣) التفاوت الاجتماعي Social Distance

كما يوضح سبنسر-أوتي (Spencer-Oatey 1996) تعددت تعريفات المتغير "التفاوت" والذي أدمج داخل نظرية التأدب لبراون وليفنسون (Brown and Levinson 1987)، في أدبيات علم اللغة الاجتماعي. ووفقاً لسبنسر-أوتي فإن الباحثين الذين درسوا متغير التفاوت وتأثيره على استخدام اللغة قد استعملوا مصطلحات متباينة لوصف تلك الظاهرة مثل مصطلحات:

"التفاوت"، و"التفاوت الاجتماعي"، و"التضامن" solidarity، و"التقارب" closeness، و"التآلف" familiarity، و"حميمية العلاقات" relational intimacy (Spencer-Oatey 1996: 2-3). ويقدم براون وجيلمان أيضاً مصطلح "التضامن" وينظران إليه كتعبير عن التطابق الفكري likemindedness، بينما يوظف براون وليفنسون (Brown and Levinson 1987) مصطلح "التفاوت" distance ويفسرانه "كبعد اجتماعي متسق symmetric للتماثل أو الاختلاف" (Brown and Levinson 1987: 76). ورغم اختلاف المصطلحات، إلا أن كلتا الدراستين تؤكدان على بُعد الاختلاف/التماثل الاجتماعي في ضوء ملاحظة المتخاطبين (ارجع إلى Spencer-Oatey 1996: 3-4) لمزيد من المناقشة). ويفهم "التفاوت الاجتماعي" على أنه سلسلة متصلة لها نهاية في كل طرف من أطراف المقياس. ومن الطبيعي أن نجد بين الغرباء درجة عالية من التفاوت الاجتماعي، بينما تتميز الصداقات والعلاقات الأسرية بانخفاض درجة التفاوت الاجتماعي. وفي حالة الغرباء، يمكن للقاءات الأولى أن تصبح فرصة سانحة لتقليل التفاوت الاجتماعي وتأسيس أرضية مشتركة (انظر الفقرة السابقة)، ومع هذا فغالباً ما تمر اللقاءات الأولى دون الحاجة إلى تقليص حجم التفاوت الاجتماعي كما في حالات مثل الاتصالات العابرة fleeting كالمعاملات الخدمية أو سؤال شخص غريب في الطريق عن الاتجاهات. وإذا ما عدنا إلى إطار التأدب عند براون وليفنسون، نجد أن ازدياد فجوة التفاوت الاجتماعي من شأنها بالطبع أن تقود المتخاطبين إلى استخدام إستراتيجيات التأدب السلبي negative politeness، كاستخدام الضمير المعبر عن V "ضمير الرسمية والاحترام" وصيغة لفظ التبجيل + الاسم الأخير. ومن ناحية أخرى أيضاً، فإن تضاؤل التفاوت الاجتماعي يمكن أن يقود إلى إستراتيجيات تأدب إيجابي positive politeness، حيث تستخدم بعض الصيغ مثل صيغة الضمير المعبر عن T "ضمير العفوية والمساواة"، والاسم الأول تعبيراً عن التماثل بين المتخاطبين (Brown and Levinson 1987).

(٢,٣,٣,١) المكانة الاجتماعية Status

بالإضافة إلى عامل التفاوت الاجتماعي، والذي يفهم على أنه علاقة غير هرمية non-hierarchical تؤدي إلى استخدم لغوي متسق to symmetrical language use (أي تبادل استخدام وسائل المخاطبة المعبرة عن صيغة T أو V بحسب درجة التفاوت الملحوظة)، هناك أيضاً عامل السلطة والذي يعرف بأنه عامل اجتماعي يفسر ممارسات اللغة الناتجة عن العلاقات الهرمية. وتوضح سبنسر-أوتي أن هذين البعدين أيضاً قد أطلقت عليهما مسميات عدة، غير أن مصطلحي "السلطة" و "المكانة" هما الأكثر شيوعاً (Spencer-Oatey 1996: 7-8).

إذا ما عدنا إلى علاقة ما سبق بالمخاطبة، نجد أن براون وجيلمان (Brown and Gilman 1960: 256-60) يعتبران أن تفاوت السلطة يؤدي إلى ممارسات مخاطبية غير تبادلية حيث يستخدم المتخاطب الأقل سلطة صيغة الضمير المعبرة عن صيغة V "الرسمية والاحترام" مع من هو أعلى منه سلطة، مع أنه يُخاطَب، في المقابل، بالضمير T "ضمير العفوية والمساواة". ومع هذا فإن "دلالة السلطة" power semantic لا تمارس إلا في مجتمع إستاتيكي (ساكن) يكون لكل فرد فيه مكانة محددة تحديداً واضحاً. وفي المجتمعات الحديثة التي تتميز بالحراك الاجتماعي، تحل "دلالة التضامن" the solidarity semantic (أي درجة التفاوت الاجتماعي) محل "السلطة". ويعد بُعد التفاوت الاجتماعي، إذن، من خلال ما سبق، بُعداً أفقياً، يقوم على مدى التشابه المشترك بين المتخاطبين، بينما يعد عنصر السلطة عنصراً رأسياً، يقوم على مدى المساواة بينهم. ففي حين يضع هذا النموذج مفهوماً للجوانب الجوهرية في العلاقات الشخصية، نجد أن فصل عنصري "التفاوت الاجتماعي" و "المكانة" إلى بعدين متمايزين لا يساعد في تحقيق أهداف هذا البحث. فنحن ننظر إلى المكانة على أنها أحد المتغيرات في نموذج يعتمد أساساً على التفاوت الاجتماعي.

(٢,٣,٣,٢) التفاوت الاجتماعي كمفهوم متعدد الأبعاد

Social Distance as a Multidimensional Concept

مثل غيره من الأبعاد التي سبق الإشارة إليها، تم وضع التفاوت الاجتماعي في إطار مفهوم متعدد الأبعاد، فيقترح سفينيفيج (Svennevig 1999: 34-5) نموذجاً لعلاقات التفاوت الاجتماعي يتضمن ثلاثة عوامل أو "أبعاد" هي: التضامن، والألفة، والانفعال (انظر الجدول رقم ٢,١).

الجدول رقم (٢,١). أبعاد التفاوت الاجتماعي.

العلاقة	السمة	المجال
انفعالية	الجاذبية المتبادلة	عاطفي
تضامنية	الحقوق والالتزامات التبادلية	معياري
تآلفية	المعرفة المتبادلة بالمعلومات الشخصية	معرفي

مقتبس من (Svennevig 1999: 34).

تعتبر تلك العوامل، في الأغلب، ولكن ليس بالضرورة، عوامل مترابطة غير متزامنة الحدوث. ويقيم سفينيفيج نموذجه وفق الطرق الثلاث الأساسية التي يقدم بها الأفراد أنفسهم، وهي تقديم أنفسهم عن طريق: "مجموعة من المشاعر والمواقف (الذات العاطفية an emotional Self)، والادعاء باصطناع مكانة في البيئة الاجتماعية، تنطوي على حقوق وواجبات معينة (الذات الاجتماعية a social Self)، ونموذج للعالم (الذات المعرفية a cognitive Self) (Svennevig 1999: 33). ويمكن أن يحدث الارتباط بين الأفراد من خلال مستوى أو أكثر من تلك المستويات الاتصالية "والتي تشمل العلاقات العاطفية emotional relations، والعلاقات المعيارية normative أو "الأخلاقية" moral، و"العلاقات المعلوماتية" informational relations" (Svennevig 1999: 33).

وتتمثل فائدة نموذج سفينيفيج على وجه الخصوص في أن تلك العلاقات الثلاث جميعها تعد علاقات قياسية في ذات الوقت، إذ إنها يمكن أن تكون متسقة symmetrical أو غير متسقة. أما فيما يتعلق بالبعد الانفعالي، فيمكن تصور هذا البعد على أنه سلسلة تبدأ من طرف التجاذب attraction مروراً بعدم الاكتراث indifference وينتهي طرفها الأخير بالرفض rejection الذي يمكن، ولكن ليس بالضرورة، أن يكون تبادلياً. وبصفة عامة، من الممكن أن يؤدي حس التجاذب (التبادلي) إلى تحول سريع لاستخدام الضمير المعبر عن T عند المخاطبة بالإضافة إلى استخدام الاسم الأول، غير أن البعد العاطفي أيضاً يختلف في مدى قوته فيكون قوياً عند بعض الناس مقارنة بالآخرين مما يدعوهم إلى الادعاء بأن لهم "الحق" في استخدام الضمير T أو V (انظر المناقشة في الفصل الثالث حول الخيار العاطفي). وتشمل علاقة التضامن في نموذج سفينيفيج كافة متغيرات التفاوت التضامني/الاجتماعي والسلطة في النماذج السابقة (انظر ما سبق). ويؤدي التوزيع غير المتوازن في الحقوق والواجبات بين المتخاطبين إلى علاقة سلطوية بينهم، بينما يؤدي التوزيع المتوازن في تلك الحقوق والواجبات إلى التضامن (Svennevig 1999: 34). وكما ذكرنا من قبل، فإنه من المفيد، في ضوء أهداف هذه الدراسة، اعتبار بُعد "السلطة" جزءاً لا يتجزأ من بُعد التفاوت الاجتماعي. وبناءً على ما لدينا من بيانات، سوف نوضح جلياً أن هذين المتغيرين يتداخلان أحياناً، حيث نجد أن بعض أفراد الدراسة يشيرون إلى عوامل الاختلافات في "التسلسل الهرمي" و"المكانة" عند اختيارهم لأسلوب المخاطبة اللائق، ولكن يتضح لنا من مناقشة مجموعة الدراسة أن الفارق في معيار السلطة يعد، في الأغلب، من بين العوامل الدالة على التفاوت الاجتماعي، وهو ما يؤدي إلى تزايد تكرار استخدم صيغة الضمير V بشكل تبادلي عند المخاطبة (انظر الفصلين الثالث والرابع). وأخيراً، تشير "التآلفية" إلى درجة المعرفة المشتركة (الأرضية المشتركة) بين المتخاطبين، حيث تختلف العلاقات

في هذا المقياس بحيث يبدأ من علاقات ذوي المعرفة الوثيقة intimates انتهاءً بالغرباء تماماً perfect strangers.

تعد الأبعاد الثلاثة – التضامن، الألفة، الانفعال – أبعاداً ديناميكية، بمعنى أن المتخاطبين يتحسسون إمكانات تقليل التفاوت الاجتماعي أو الحفاظ عليه أو تعظيمه. فكل حدث تواصلي يعد في حد ذاته حدثاً تحركه طبيعة العلاقة والحوار (Bakhtin 1986)، ويتفاوض المتخاطبون بطرائق مختلفة حول ما يمكن أن يحرزوه من مكانة. وكما سنوضح في الفصول التالية، فإن عملية الانتقال من استخدام الضمير V إلى الضمير T تعد عملية طويلة وتكتنفها الصعوبات أحياناً، بينما تعد ذات العملية لدى البعض الآخر تحولاً سرعان ما يحدث في المقابلة الأولى، أحياناً، ويعتمد ذلك على مدى سرعة التسليم بالتشابه في واحد أو أكثر من الأبعاد المشار إليها.

(٢,٣,٤) الأسلوب Style

في إطار لغوي-اجتماعي تقليدي، يفسر التنوع الأسلوبي stylistic variation على أنه مستوى من مستويات الاهتمام الذي يوليه المتحدثون لما ينطقون به من كلام (Labov 1972: 70-109). وبناء على هذه الرؤية، لم يعد الأسلوب جديراً بالاهتمام النظري حيث كان التركيز ينصب على أهمية انتماء المتحدثين إلى فئات اجتماعية ثابتة بدلاً من التركيز على أغراضهم التواصلية (Coupland 2001: 191). غير أن الأعمال الحديثة للباحثين البريطانيين والأمريكيين، كما أوضح جاردنر-كلوروس (Gardner-Chloros 2004: 10)، ركزت على التنظير لمفهوم "الأسلوب" لا سيما دوره في عملية تقديم الذات presentation of self (انظر، على سبيل المثال، (Eckert and Rickford 2001)). وينظر كبلاند، على سبيل المثال، إلى تبني أسلوب معين عند التفاعل في المخاطبة على أنه "حالة خاصة من حالات تقديم الذات، في

داخل سياقات علاقية relational contexts معينة، تعبر عن أهداف ترتبط بتلك العلاقة relational goals، وأهداف ترتبط بهوية الفرد identity goals" (Coupland 2001: 187).

هناك بُعد آخر يؤثر في اختيار لفظ المخاطبة اللائق ألا وهو بُعد التوافق الاجتماعي social consensus الضمني حول المعنى. فيرى كبلاند أن "الأفراد داخل كل موقف من المواقف الكلامية، وفي كافة المواقف الكلامية، يعرفون كيف يستخدمون المعاني الاجتماعية التقليدية المتضمنة في التنوعات اللهجية" (Coupland 2001: 198). وقد قام أغا (Agha 2007)، أيضاً، في دراسته لنماذج السلوك الاجتماعي بفحص العلاقة بين الدلالات الاجتماعية التقليدية واستخدام الفرد لتلك الدلالات. ويتناول أغا، في جزء من دراسته، اللهجات الخاصة بالإشارة إلى الشخص deixis. وتشير كلمة الإشارة deixis هنا بشكل أساسي إلى الأشكال اللغوية التي يعتمد معناها الكلي على السياق الاجتماعي الذي تستخدم به، مثل كلمات الإشارة this "هذا، للقريب" و that "ذلك، للبعيد"، وبعض ظروف الزمان مثل now "الآن" و here "هنا"، وبالطبع، ضمائر المخاطبة. وفي الماضي كان مفهوم الإشارة يرتبط "ببعض الافتراضات الأساسية مثل (١) بعض الإشارات الخاصة لها "دلالة اجتماعية" كامنة متفق عليها وثابتة لدى كافة المتحدثين، (٢) تكوِّن مثل تلك التشكيلات اللهجية الخاصة "أنظمة" لغوية ("أنظمة مخاطبة") مغلقة لها تركيب داخلي خاص يفهمها كافة مستخدمي اللغة" (Agha 2007: 278-9). إذا ما طبقنا هذا الأمر على كافة أشكال المخاطبة فإن الدلالات الاجتماعية التقليدية المرتبطة ببعض الألفاظ، مثل ارتباط الضمير Sie "أنت، للاحترام" في الألمانية بـ"التأدب"، يمكن أن يعاد النظر بشأنها من قبل الأفراد بل ويمكن لهؤلاء الأفراد إعادة التفاوض بشأنها في أي عمل يرتبط بهويتهم في موقف معين (انظر الفقرة ٢,٣,٥). تؤكد مورفور Morford، في دراستها للفرنسية، على أهمية وعي المتحدثين بالدلالات الاجتماعية للضميرين tu و vous. فالضمير vous، مثلاً، يستخدم في الوقت

الحاضر في كل السياقات ومن قبل أفراد ينتمون إلى طبقات مختلفة، إلا أن هذا الضمير لا يزال يفوح بآثار البرجوازية ويمكن اعتباره ضميراً معبراً عن النهج "المحافظ" conservative من الناحية الأيديولوجية، مقارنة بالضمير tu الذي يميل إلى الجناح اليساري left-wing (Morford 1997: 16-17, 19).

(٢,٣,٥) الهوية Identity

تؤكد كثير من الأبحاث الحالية التي تجرى حول العلاقة بين الاستخدام اللغوي والفئات الاجتماعية social categories على مفهوم "الهوية الاجتماعية" social identity وعلى الدور الذي تلعبه اللغة في تشكيل الهويات الاجتماعية. ففي حين نرى أن الاهتمام بمسألة الهوية لا يعد اهتماماً محدثاً، إلا أن مسألة الهوية الاجتماعية تعد عنصراً هاماً في أي مشروع بحثي في اللغويات الاجتماعية. وتحول تركيز الأبحاث التي تتعلق بالهوية في العقود الماضية القليلة من النسق التأسيسي essentialist paradigm إلى النسق البنائي constructivist (Joseph 2004: 83-91). ففي دراسات اللغويات الاجتماعية التباينية variationist المبكرة، كان ينظر إلى الفئات الاجتماعية، مثل العمر، والنوع، والمكانة ومستوى التعليم كمكونات ثابتة نسبياً، غير مثيرة للجدل وأمكن استخدام تلك الفئات في توضيح سلوك الجماعة (راجع، مثلاً، (Labov 1972)، و (Trudgill 1974))، لكن مع ظهور اللغويات الاجتماعية التفاعلية وإثنوجرافية الاتصال، واللذين انصب اهتمامهما على البيانات الكيفية وعلى سلوك الأفراد في الأحداث الكلامية الفعلية أكثر من ذي قبل، حدث تحول في دراسات الهوية أيضاً (راجع، مثلاً، دراسة (Gumperz 1982)). ومن النقاط الأساسية في الأبحاث الحديثة في اللغويات الاجتماعية، كما هو الحال في علم النفس الاجتماعي وفي تحليل الخطاب بصفة عامة، اعتبار أن الأفراد "وكلاء" agents يتفاوضون بشأن هوياتهم عند التفاعل.

شرعت بعض الدراسات الإثنوجرافية للاستخدام اللغوي كدراسة لوباج وتابوريه-كيلر (Le Page and Tabouret-Keller 1985) في منطقة الكاريبي، على سبيل المثال، في دحض الصور النمطية حول الهويات اللغوية والعرقية. وقد خالف الباحثان نسق اللغويات الاجتماعية السائد في الوقت الحاضر، إذ إنهما اعتبرا أن سلوك الأفراد لا يعد أساساً تعبيراً عن الطبقة أو النوع أو العرق أو أي فئة اجتماعية أخرى محددة سلفاً، ولكنه يعد سلسلة من الأفعال المرتبطة بالهوية acts of identities حيث "ينشئ الأفراد أنماط سلوكهم اللغوي حتى يتشبهوا بأولئك المنتمين إلى المجموعة أو المجموعات التي يودون الانتماء إليها في وقت من الأوقات" (Le Page and Tabouret-Keller 1985: 18). والأمر المهم الذي تطرحه الدراسة الحالية هو أن الهويات الاجتماعية تعد هويات ديناميكية يعاد صياغتها بصورة نشطة من خلال اللغة ويتم التعبير عنها، أو يمكن القول إن تلك الهويات تنشأ كسلوك لغوي حقيقي يرمز إلى التماثل أو الاختلاف. ويتناول تاجفيل Tajfel هذين البعدين أيضاً في دراسته حول الهوية الاجتماعية وحول أهمية التعبير عن الانتماء، وفق الموقف الكلامي، إما إلى الجماعة الداخلية in-group (بُعد التماثل the sameness dimension) أو الجماعة الخارجية out-group (بُعد الاختلاف the difference dimension) (Tajfel 1974).

من الموضوعات المتكررة في كثير من أبحاث الهوية الاجتماعية في الوقت الحاضر ذلك الموضوع المتعلق بديناميكية الهويات وكونها كياناً سائلاً مائعاً fluid ومتعدداً multiple، وهذا لا يعني أن أمر الهوية غير منضبط أو أن "أي شيء يمر"؛ فوفق ما يراه تسيمرمان (Zimmerman 1988)، نحن بحاجة إلى التمييز بين مستويات التفاوضية ومستويات الثبات. وتشير هويات الخطاب discourse identities، في نموذج تسيمرمان، إلى أدوارنا التي تتغير باستمرار أثناء المحادثة، كأدوارنا كمتحدثين ومستمعين، مثلاً، بينما تتعامل الهويات المواقفية situational identities

مع حقوق وواجبات خاصة في موقف محدد، كمثل حالة سلوك الطبيب والمريض في الاستشارة الطبية. ففي حين تتغير الهويات الخطابية والمواقفية أثناء التفاعل، تظل الهويات المنقولة transportable identities من الفئات الاجتماعية الأكثر ثباتاً حيث يحملها معهم الأفراد من حدث كلامي speech event إلى حدث كلامي تال له. ومن أمثلة تلك الهويات المنقولة: العمر، والجنس، والعرق وغيرها من العلامات المنظورة مثل أسلوب ارتداء الزي. وحتى إذا نظرنا إلى الهويات المنقولة كهويات أكثر ثباتاً من الفئات الأخرى، فإننا نجد أنها هويات ليست إستاتيكية ثابتة؛ فهي غير ذات معنى إلا إذا قصد المتخاطبون إليها قصداً. وهذا يعني أن الهويات ينبغي أن تكون بارزة داخل التفاعل.

يميز بافلينكو وبلاكليدج (Pavlenko and Blackledge 2004) أيضاً بين ثلاثة أنماط من الهويات: الهويات المفروضة imposed identities، والهويات المفترضة assumed identities، والهويات القابلة للتفاوض negotiable identities (Pavlenko and Blackledge 2004: 21). فالهوية المفروضة هي تلك الهوية التي لا يمكن دفعها أو التفاوض بشأنها (لم تكن الهوية اليهودية في ألمانيا النازية، مثلاً، قابلة لأي تفاوض). أما الهويات المفترضة فهي الهوية التي يقبلها الكثيرون في المجتمع، وبالطبع تكون محل قبول الجماعات المسيطرة. وأخيراً، تشمل تلك الهويات القابلة للتفاوض بعض المتغيرات مثل العرق، والطبقة، والنوع، والمكانة، والتي يمكن للأفراد، وأيضاً الجماعات، تبنيها أو رفضها أو التنافس مع الغير بشأنها. وفقاً لما أورده بافلينكو وبلاكليدج فإن التفاوض بشأن الهويات يكمن فيما يسمى بـ"نظرية التموضع" positioning theory (Davies and Harré 1990, Harré and van Langenhove 1999) و"ينبغي أن يفهم هذا التفاوض على أنه تفاعل بين التموضع التأملي reflective positioning، أي تمثيل الذات self-representation، والتموضع التفاعلي interactive positioning أي محاولة الآخرين محورة أو إعادة محورة أفراد أو جماعات بعينها" (ص ٢٠).

تتفق فكرة تسيمرمان حول الهويات المتراكبة طبقياً layered identities أثناء التفاعل ومفهوم محورة المتخاطبين لأنفسهم مقارنة بالآخرين مع عمل جوفمان Goffman حول تقديم الذات وكيفية بناء "الذات" أثناء التفاعل (Goffman 1959). ويعد مفهوم التموضع – سواء أكان للأفراد أم للجماعات – من الأفكار المفيدة. فإحدى النقاط المفيدة في نموذج بافلينكو وبلاكليدج هي أن الأنماط الثلاث من الشخصيات تعد أنماطاً غير ثابتة، بمعنى أن مستوى التفاوضية يمكن (وعادة ما يكون هكذا) أن يتغير مع مرور الزمن. فيمكن أن تستخدم أشكال المخاطبة للتعبير عن الانتماء للآخر أو عدم الانتماء إليه، سواء في حالة الأفراد أم الجماعات، وهذا يعيدنا مرة أخرى لفكرة الأرضية المشتركة التي ناقشناها من قبل. سنعود في الفصول التالية إلى مناقشة الدلالة الاجتماعية لبعض أشكال المخاطبة والتي تتطور وتتنوع من الناحية الجيومكانية مع مرور الزمن. وسوف نعاود الرجوع إلى الوسائل التي يتم بها التعبير أو تلك التي تتحاشى التعبير عن الهويات في الفصول التالية.

(٢,٤) المنهجية
Methodology

أماكن الدراسة الست الرئيسة هي باريس (فرنسا)، ومانهايم ولايبتسيج (ألمانيا)، وفيينا (النمسا)، وجوتنبرج (السويد)، وفاسا (فنلندا) (انظر الفقرة ١,٦). وفي كل موقع من تلك المواقع السابقة، تم تجميع خمس مجموعات بيانية بواقع مجموعتين من البيانات تم تجميعهما من مجموعات الدراسة focus groups، ومجموعة أخرى تم تجميع بياناتها من المقابلات التي أجريت عبر الشبكة وهي تتكون من قسمين (قسم خاص بالاستبانة المغلقة closed questionnaire والآخر خاص بالمقابلة المفتوحة open-ended interview)، و مجموعة بيانات تتعلق بملاحظات المشاركين participant observation، ومجموعة بيانات تتصل

بمجموعات التواصل الاجتماعي الحواري على الشبكة chat groups. وفضلاً عن ذلك، شكلنا مجموعات للدراسة في لندن ونيوكاسل على نهر التين (إنجلترا) وفي ترالي (إيرلندا).

(٢,٤,١) مجموعات الدراسة وملاحظات المشاركين

Focus Groups and Participant Observation

تستخدم مجموعات الدراسة استخداماً موسعاً وناجحاً في أبحاث التسويق market research (Greenbaum 1998). وقد أثبتت آلية تلك المجموعات إيجابيات عديدة في الدراسات المتعلقة بالحفاظ على اللغة والتحول اللغوي (راجع دراسة (Kipp, Clyne and Pauwels 1995)، و (Clyne and Kipp 1999, 2006)، على سبيل المثال). وتم توجيه مجموعات الدراسة في هذا البحث إلى تجميع المعلومات حول الطريقة التي يتخاطب بها شخص مع آخر في ظروف معينة وديناميكيات الجماعة المؤدية إلى استجابات تلقائية من أحد المشاركين أو أكثر. وقد أدى هذا التوجيه إلى مناقشات حامية بين الأفراد عبروا فيها، وبصورة قوية، عن مواقف متوافقة تارة ومتعارضة تارة أخرى حول ملاحظاتهم للاستخدام اللغوي في المخاطبة ومواقفه المختلفة وتوقعاته. إن من شأن مناقشات مثل تلك أن تجلي لنا صورة حقيقية، قدر الإمكان، حول دور صياغات المخاطبة في العلاقات الإنسانية. وتم عقد جلسات مع مجموعات الدراسة في كل مواقع الدراسة في بداية المشروع وبالقرب من نهايته. تحققت أهداف الاجتماع الأول مع مجموعة الدراسة وقدم فريق البحث رؤاهم حول الموقف الحالي للمخاطبة كما يراه أفراد المجتمع اللغوي ونجح الفريق أيضاً في اختيار الشبكات اللازمة لإجراء المقابلات عليها. واشتمل الاجتماع الثاني لمجموعة الدراسة على المشاركين في تفسير البيانات، وقدمت إلى هؤلاء النتائج التي تم التوصل إليها في حينه وطلبت منهم التعليق عليها، و تم تطبيق هذا الأمر على

النتائج الغامضة وتلك التي كان يصعب تفسيرها بصفة خاصة. لقد كان الاجتماع الثاني أيضاً فرصة سانحة للحصول على معلومات من المشاركين حول المشروع البحثي.

تم تسجيل آراء مجموعات الدراسة على جهاز للتسجيل وأجريت التسجيلات بواسطة الباحث المساعد المحلي المقيم داخل البلد والذي اشترك في جلسة تدريبية أقامها الباحثون في معهد اللغة الألمانية في مانهايم Institut für deutsche Sprache in Mannheim[٣]. اشتملت المجموعات على مجموعة أفراد يصل عددها إلى ١٦ فرداً يمثلون، إلى حد ما، قطاعاً عريضاً يمثل عوامل العمر والنوع والمهنة، مع تحيزنا لصالح الطبقة الوسطى المهنية والطلاب. كان المدى العمري للأفراد يتراوح بين ١٦-٨٣ عاماً. وكانت الأسئلة الآتية من بين الأسئلة الرئيسة التي بدأ بها المنسق:

- كيف تَغير استخدام كل من ضمائر T وضمائر V؟
- ما هو الدور الذي لعبه التواصل مع اللغات الأخرى أو التواصل مع مستخدمي اللغات الأخرى في هذا التغير؟
- كيف يحدث التحول في العلاقة من استخدام الضمير V إلى استخدام الضمير T؟
- (بالنسبة للمجموعات الناطقة بالإنجليزية) ما هي أساليب المخاطبة المستخدمة في اللغة الإنجليزية التي توازي استخدام الضمير T والضمير V؟
- كيف تستخدم الضمائر مع الألقاب والاسم الأخير في مقابل استخدام الاسم الأول؟
- كيف يشعر الناس عندما يخاطبون بصورة "غير متوقعة"؟
- ما هي الفوارق بين الدول والمناطق المختلفة الناطقة بنفس اللغة في استخدام ألفاظ المخاطبة؟

---

(٣) نتوجه بالشكر للودفيج آيشينجر Ludwig Eichinger وفيرنر كلماير Werner Kallmeyer من معهد اللغة الألمانية للمعاونة في إنجاز هذا العمل.

قام الباحثون بتدوين ملاحظاتهم كمشاركين بصورة عفوية في الدول والأماكن التي تعنى بها الدراسة و قاموا كذلك بإجراء تقصٍّ للحقائق fact-finding بشكل غير رسمي أيضاً وذلك من خلال إجراء الحوارات في شبكاتهم الخاصة أثناء زياراتهم المطولة إلى الدول محل الدراسة. وتم عمل ملاحظات من قبل المشاركين في داخل المحلات، على سبيل المثال، وفي المتاجر، ومكاتب البريد، والفنادق، والمقاهي والمطاعم، والمكاتب الحكومية، والكنائس، وأقسام الجامعات، والتجمعات الاجتماعية، والمستشفيات، وغرف انتظار الأطباء العموميين، وأطباء الأسنان، وصالونات الحلاقة، وفي السيارات الأجرة وفي مواقف الاتصال المباشر، وعبر الهاتف. ووضعت الرموز FG1 و FG2 و PO للإشارة إلى مجموعة الدراسة ١ ومجموعة الدراسة ٢ وملاحظات المشاركين، على الترتيب.

(٢,٤,٢) المقابلات حول ممارسات المخاطبة

Interviews on Address Practices

لقد استقينا جزءاً كبيراً من بيانات هذه الدراسة من المقابلات التي أجريناها عبر الشبكة والتي تم إجراؤها مع المفحوصين في كل مواقع البحث، حيث بلغ عددهم ٧٢ للغة الفرنسية، و ١٤٤ في اللغة السويدية، و ١٩٨ في اللغة الألمانية. وهذا يعني أن ٤١٤ فرداً قد شاركوا بآرائهم حول المخاطبة وأدلوا ببيانات حول استخداماتهم للصياغات المختلفة لأساليب المخاطبة. وقد أجريت تلك اللقاءات بواسطة باحثين مساعدين من داخل الدولة وذلك باستخدام الاستبانات التي صممها الباحثون المساعدون. وانتقى الباحثون المساعدون ١٢ مشاركاً يمثلون القاعدة[٤] وينتمون إلى شبكاتهم الاجتماعية والتي تضم، على سبيل المثال، الأصدقاء وأفراد الأسرة وزملاءهم من الطلاب وزملاء

(٤) لأسباب فنية تم اختيار ١١ مشاركاً في المواقع البحثية الخاصة باللغة الألمانية.

العمل والجيران. وطلب من كل فرد من هؤلاء أن ينتقي خمسة أعضاء من شبكته الاجتماعية مما أفرز لنا مكتزاً corpus يضم ٧٢ مشاركاً في كل موقع (٦٦ منهم للغة الألمانية). ويسكن كل هؤلاء المشاركين إما في المدينة محل الدراسة أو في حيز مسافة ليست بالبعيدة، ومن يعمل أو يدرس من هؤلاء يقوم بذلك داخل حدود المدينة. لقد ترعرع الغالبية العظمى من المفحوصين أيضاً في المدينة أو في داخل نطاقها الأكبر.

تقابل كافة المشاركين مع الباحث المساعد لملء الاستبانة المغلقة حول المخاطبة وللمشاركة في مقابلة شبه مهيكلة semi-structured حول ممارسات المخاطبة. وكان القصد من تلك الاستبانة الحصول على معلومات من المفحوصين حول استخدام الضمير المعبر عن T أو V وفي بعض الحالات حول استخدام الاسم الأول/الأخير + لفظ التبجيل و/أو اللقب أو الاسم/مصطلح القرابة kinship term عند مخاطبتهم لشخص ما في عدد من المواقف المختلفة. وتم عرض عدد من المجالات domains التي تتم بها المخاطبة، ومنها: المجال العام the public domain (أي كيف يخاطب المستجيب شخصاً غريباً بالشارع، أو بائعاً بأحد المحلات، أو ضابط شرطة ... إلخ)، والمجال الخاص the private domain (أي مخاطبة أفراد الأسرة والأصدقاء) ومجال بيئة العمل workplace (أي مخاطبة زملاء العمل والرؤساء في العمل والعملاء). وتم سؤال المفحوصين عن كيفية مخاطبتهم للآخرين وكيفية الرد عليهم في العديد من المواقف في هذه المجالات (انظر الاستبانة كاملة في الملحق أ).

بعد الاستبانة تم إجراء المقابلة والتي كانت ترمي إلى استدراج المفحوصين للإجابة على سلسلة من الأسئلة تتعلق بصياغات المخاطبة (انظر الملحق أ)، مثل: كيف تخاطب جارك وكيف يخاطبك؟ ما هو العمر الذي ينبغي أن يخاطب عنده المرء بصيغة V؟ كيف تستهل خطاباً إلى شخص لا تعرفه؟ هل سبق أن خوطبت بصيغة لا تعرفها؟ هل لاحظت أي تغير في الطريقة التي يتخاطب الناس بها في السنوات العشر إلى الخمسة عشر الأخيرة؟

ما رأيك في الشركات التي تجعل موظفيها يتخاطبون بصيغة T، مثل شركة أيكيا IKEA؟ تلت مرحلة التدوين مرحلة تسجيل المقابلات وتنوعت الأسئلة من ناحية المدى الزمني، من ١٠ دقائق، في بعض الحالات، إلى ما يربو على الساعة في حالات أخرى قليلة، وهو ما يعد بمثابة كنز من المعلومات والآراء حول المسائل المطروحة.

(٢,٤,٣) مجموعات التواصل الاجتماعي الحواري عبر الشبكة Chat Groups

قصدنا تشكيل مجموعات للتواصل الاجتماعي الحواري عبر الشبكة في كل لغة من اللغات محل الدراسة فيما يتعلق بالمخاطبة بغرض الحصول على مصدر إضافي للمعلومات حول مواقف المخاطبة وتوقعاتها من خلال نوع من ثقافة الحوار يختلف عن أسلوب مجموعات الدراسة المتبع. وتمكننا مجموعات التواصل الاجتماعي الحواري عبر الشبكة من ملاحظة أنماط المخاطبة بين الأفراد والتي تتم من خلال وسيلة تكنولوجية جديدة. غير أننا قررنا ألا ننشئ مجموعات للتواصل الاجتماعي الحواري عبر الشبكة خاصة بنا، بل اعتمدنا في تحصيل المعلومات على المجموعات القائمة بالفعل لتحقيق كافة الأهداف المنشودة. وتتعدد أنشطة تلك المجموعات بدءاً من المنتديات حول اللغة والأسلوب، ووصولاً إلى مجموعات التواصل الحواري تقوم على الهوايات مثل جمع الطوابع أو روابط كرابطة معجبي سيمبسونز Simpsons fans.

(٢,٥) ملاحظات ختامية
Concluding Remarks

طرحنا كنقطة انطلاق لنموذج المخاطبة البدء بمفهوم التفاوت الاجتماعي والذي نعتقد أنه مبدأ عام يسترشد به عند اختيارهم لصيغة معين من أشكال المخاطبة. فالتفاوت الاجتماعي يعد مفهوماً متعدد الأبعاد ويتضمن مستويات من الانفعال، والتضامن،

والتآلف (Svennevig 1999). فيقع التعبير عن مستوى الانفعال بين درجتي القرب العاطفي (كما في حالة العلاقات الحميمة) ودرجة التباعد العدائي (كما نجده بين الأعداء). ويتراوح التعبير عن التضامن بين التماثل الملحوظ أو الملفوظ (كأن تكون على نفس المزاج، والخبرات وعليك نفس الحقوق والواجبات)، ودرجة الاختلاف (كالاختلاف في الحقوق ... إلخ، وبالتالي عدم التكافؤ في المكانة). أما عنصر التآلف فيقع بين درجتي العلاقات الوطيدة، كما هو الحال بين ذوي العلاقات الحميمة أو الأصدقاء المقربين إلى درجة علاقة الغربة التامة، حيث لا يوجد تعارف شخصي على الإطلاق.

يرتبط مفهوم "الأرضية المشتركة" والذي يمكن فهمه على أنه "تضاؤل في درجة التفاوت الاجتماعي" في كافة متغيراتها. فقد يؤدي الإحساس بالتجاذب (انفعال) إلى البحث عن أية وشائج للقربى، أو قواسم مشتركة، بين المتخاطبين، وهو ما يمكن، بدوره، أن يساعد في تأسيس أرضية مشتركة. ويرتبط الإحساس بالتضامن، وهو يتمثل بصورة واضحة في العلاقات بين زملاء العمل، وبين أعضاء النادي الرياضي، أو الحزب السياسي، بأرضية مشتركة قائمة بالفعل في إطار هذا النشاط أو المجال المشترك. وربما تعد درجة التآلف، كبعد من أبعاد التفاوت الاجتماعي، هي الأكثر صلة بمفهوم الأرضية المشتركة بصورة جلية، إذ إنها تقوم على معرفة الطرفين التبادلية بالمعلومات الخاصة بالطرف الآخر.

يعد التفاوت الاجتماعي والتعبير عن الأرضية المشتركة من الفئات التي ترتبط بطبيعة العلاقة بين المتخاطبين relational categories؛ أي أن تلك الفئات غير مستقرة ولا ساكنة، لكنها قابلة للتفاوض وإعادة التفاوض في سياق تفاعلي. وهذا يعني أن المتخاطبين، الذين تتغير أدوارهم بطبيعة الحال، حيث يصبح المتكلم هو المخاطب، والعكس صحيح، دائماً ما ينظرون إلى مواقعهم مقارنة بالآخرين، وهم بهذا يوظفون إستراتيجيات التأدب الإيجابية والسلبية التي تدعم "الوجاهة" الإيجابية أو السلبية لهم.

ولعل إحدى الطرق التي قد تبرر وجود الأرضية المشتركة توظيف التأدب الإيجابي الذي يؤكد على المتماثل والمشترك. وترتبط مسألة وضع الذات في مقارنة مع الآخر بمسألة "قراءة" الآخر. ويمكن تفسير كثير من أسباب اختيار المفحوصين لأسلوب معين في المخاطبة في إطار القدرة على قراءة هوية الشخص الآخر (الهوية الظاهرة) واتخاذ قرار بشأن التحالف معه من عدمه، ومن ثم فإن ممارسات المخاطبة تتمحور حول فكرة الاحتواء inclusion (احتواء الذات والآخر)، وأيضاً حول فكرة الإقصاء exclusion (إقصاء الذات بعيداً عن الآخر).

وختاماً، يمكن القول إن المتخاطبين ينقلون فهمهم للدلالة الاجتماعية التقليدية إلى صيغ المخاطبة ذاتها في كل تفاعل يحدث، ولكن يمكن القول إن هناك درجة معينة من الإجماع الاجتماعي المشترك حول معنى صيغة مخاطبة محددة، ففي الخطاب "الشعبي" popular discourse يعتبر الضمير الفرنسي vous، مثلاً، ضميراً للتأدب. ويمكن لمثل تلك الدلالات أن تقبل كما هي، ويمكن أن يعاد التفاوض بشأنها من قبل المتحدثين أثناء التفاعل.

سوف يأخذنا عرض الدراسات السابقة في هذا الفصل وتحليل بياناتنا ومناقشتها في الفصل الثالث إلى طرح نموذج استقرائي (الفصل السادس) يقوم على خصائص اللغات، وعلى المبادئ التي تحكم خيارات صيغ المخاطبة وعوامل لغوية واجتماعية أخرى.